أحمد عثمان

تاريخ اليهود

الجزء الثالث

مكتبة الشروق

مقدمة

يستعرض أحمد عثمان فى هذا الجزء تاريخ اليهود منذ قيام الإمبراطورية العثمانية حتى قرننا الحالى ..

فيبدأ بلجوء اليهود بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى الأندلس إلى استانبول ـ مقر الخلافة الإسلامية الجديدة ـ وإلى المغرب وتونس ومصر ـ وليس فلسطين ! وكيف حصلوا على فترة من الراحة والاستقرار والازدهار ، حتى أن چوزيف ناسى مستشار سليمان القانونى ـ أحد أعظم حكام العالم ـ كان يهودياً . وحصل ناسى على امتياز استغلال طبرية .. ولكن رفض اليهود الإقامة هناك ـ لعلهم وحاخاماتهم ذلك الوقت لم يفهموا من التوراة أنها أرضهم الموعودة ! ـ بل يذهب المؤلف لأنه لولا الخلافة العثمانية لباد اليهود من العالم ، سواء بالقتل أو التنصير .

ثم يتناول مسألة يهود الخزر، وكيف كذب بيجن على العالم علناً عندما ادعى أن أجداده بنوا الأهرام .. فقد كانت هناك قبل دخول بنى إسرائيل مصر ، ثم إن بيجن ليس من نسل بنى إسرائيل ، وهذا ما أكدته مخطوطات معبد عزرا اليهودى بمصر القديمة .

يصل المؤلف لعصر النهضة الأوروبية ، فيبدأ بداعية الإصلاح مارتن لوثر ، وكيف أمل أن يتبعه اليهود ، ثم كيف انتهى به الأمر لأن يكتب رسالتين « اليهود وأكاذيبهم » ، « الإسم غير المنطوق » .

زادت أهمية اليهود مع ظهور البنوك ـ فالكنيسة ذلك الوقت حرمت الربا ـ وبدأت سيطرتهم على أسواق المال مما زاد كراهية الشعوب لهم ، وتكرر مصادرة أموالهم وطردهم من أوروبا ، حتى قامت الثورة الفرنسية

فابتدأ اليهـود في الحصول على حقوق المواطنة فى فرنسا ثم بقية أوروبا ، بدرجات متفاوتة .

ويروى قصة المسيح اليهودى المزعوم ـ شابتاى زيفى ـ الذى ظهر فى القرن السابع عشر ، إلام دعا فى البداية وإلام فى النهاية .

ثم يتطرق إلى تحريم التصوير فى التوراة ، كيف تتطور لسيطرة اليـهود على عالم التصوير .

كذلك يتطرق لما أشيع فى أوروبا من تقديم اليهود الأضحية البشرية ، فهل حدث هذا ؟ أم نسجته كراهية اليهود التى بدت واضحة فى الأدب والأساطير الشعبية في أوروبا ؟

ويتساءل .. هل يريد اليهود الذوبان فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، أم أن زعماءهم وحاخاماتهم يصرون على أسطورة الشعب المختار .

ويصـل لهـرتزل ، نبى اليـهـود العلمـانى ـ الذى مـات على الأرجح بالزهرى ـ والذى كان يدعو فى البداية لتنصير كل اليهود ، وخلفه وايزمان الذى حصل على وعد بلفور .

ويختـم الجـزء بثلاثـة فـصـول : أرض الميـعـاد ، هل هى أمـريكا أم فلسطين ؟ ؛ ثم اليهود وهتلر ، ثم ماذا بعد ؟

وسيصدر قريبا الجزء الرابع عن المغامرة الصهيونية فى القرن العشرين ، مـن استـجـداء وطـن قـومـى لليـهـود إلى إسـرائيل الكبـرى والتـهـديد بالسلاح النووى .

الإمبراطورية العثمانية
ملجأ للطوائف اليهودية الهاربة من إسبانيا

كان ظهور الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر وحلولها مكان الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا ، بمثابة طوق النجاة الذى عثر عليه اليهود الهاربون من إسبانيا بحثاً عن موطن جديد يأويهم . فبينما أغلقت معظم الدويلات الأوروبية المسيحية أبوابها في وجه القادمين ، راحت أبواب العثمانيين تنفتح على مصراعيها ترحيباً بهم على أرضها . وفى ظل الإمبراطورية العثمانية التى استمرت خمسة قرون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، حصل اليهود على أطول فترة من الاستقرار الاجتماعى استطاعوا تحقيقه فى كل تاريخهم .

ففى وقت كان العالم الإسلامى وصل فيه إلى أقصى درجات الضعف والتفكك بعد سقوط الخلافة العباسية عام ١٢٥٨ ، ولدت إمبراطورية إسلامية جديدة أقامها العثمانيون الأتراك الذين قضوا على الإمبراطورية

البيزنطية وأعادوا لبلاد الأناضول مجدها القديم ، فقد كانت بلاد الأناضول – فى آسيا الصغرى – من مناطق الحضارات القديمة ، يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف عام ، وهى عرفت باسم « بلاد الحيثيين » فى الأزمنة القديمة عندما نشب الصراع بينها وبين الفراعنة المصريين للسيطرة على شمال سورية ، وكانت آخر معركة بينهما هى التى خاضها رمسيس الثانى ، آخر عظماء الملوك المصريين القدماء . ثم انهارت مملكة الحيثيين خلال القرن الثانى عشر السابق للميلاد أمام هجمات أقوام البحر الذين قدموا من الجزر الإغريقية . وعلى إثر سقوط مملكة الحيثيين تقسمت الأناضول إلى دويلات صغيرة ، وظلت فى حالة من الضعف إلى أن استولى عليها الفرس عام ٥٤٦ قبل الميلاد وكانوا يبغون العبور إلى أوروبا من هناك . ثم جاء الاسكندر المقدونى ليطرد الفرس ويحل محلهم عام ٣٢٣ ق . م ، واستمر النزاع بين خلفائه للسيطرة على بلاد الأناضول إلى أن هزمهم الرومان فى بداية القرن الثانى السابق للميلاد ، وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين ، شرقية وغربية ، قبل نهاية القرن الميلادى الثالث ، وتحولت القسطنطينية إلى عاصمة للإمبراطورية واعتنق الرومان الديانة المسيحية تبعاً للإمبراطور وأصبحت آسيا الصغرى هى مركز الدولة البيزنطية الرومانية الشرقية .

إلا أنه منذ بداية الألف الميلادية الثانية تعرضت منطقة الحضارات

القديمة المحيطة بالبحر المتوسط إلى سلسلة من الهجمات قامت بها قبائل مهاجرة من شرقى آسيا وأواسطها أدت إلى تغيير مجرى تاريخ العالم بعد ذلك . فعندما اعتنقت قبائل أوغور التركية الإسلام عند منتصف القرن العاشر ، خرجت من وسط آسيا وسارت غرباً لتشكل إمبراطورية السلاچقة التى سرعان ماخضعت لها بلاد فارس والعراق وسورية وفلسطين ، كما نازع السلاچقة الأتراك الدولة البيزنطية فى الأناضول . إلا أن موجة أخرى من هجرات شرقى آسيا جلبت التتار المغول إلى الغرب خلال القرن الثالث عشر ، مما أدى إلى القضاء على سلطة السلاچقة . وفتحت الطريق أمام هجرات الأقوام التركية إلى بلاد الأناضول التى تفككت إلى مايزيد على عشرين إمارة صغيرة . وكانت قبيلة « عثمان أوغلو » تمثل واحدة من هذه الإمارات فى « بيثينيا » الواقعة فى الشمال الغربى بالقرب من مضيق البوسفور .

وبدأت الدولة الجديدة عندما استقل عثمان التركى فى بداية القرن الرابع عشر بحكم المنطقة التى كان يسكنها ، ثم راح يعمل على توسيع رقعة أرضه ، وتمكن قبل موته مباشرة من ضم مدينة بورصة الواقعة إلى الغرب ، ومن ثم جعلها ابنه أورخان عاصمة له ، ثم انتزع أورخان بعض الأراضى الخاضعة للدولة البيزنطية ، وأضاف إليها مناطق كانت فى يد التركمان . واستمر العثمانيون فى محاولاتهم الناجحة فى توسيع رقعة

سيطرتهم ، وكانت بداية غزواتهم موجهة غرباً إلى الساحل اليونانى .

ومع استيلاء العثمانيين على البلدان التابعة للدولة البيزنطية خضعت الطوائف اليهودية المقيمة بها إلى السلطة العثمانية الجديدة . وكانت أول طائفة يهودية تقع تحت السلطة العثمانية هى الطائفة المقيمة فى « بورصة » أول عاصمة للدولة العثمانية . وجاء الحكم العثمانى ليرفع عن كاهل اليهود سوء المعاملة التى كانوا يلاقونها من السلطات البيزنطية . ثم صدر فرمان سلطانى يخول اليهود بناء معبد لهم كما سمح لهم بالقيام بالأعمال التجارية من دون قيود وشراء العقارات - وكانت محرمة عليهم من قبل - مقابل دفعهم للخراج . وسرعان ما انضم إلى يهود بورصة مهاجرون يهود جدد جاءوا من فرنسا والمانيا وإيطاليا وبعد سقوط الأندلس من إسبانيا والبرتغال . وكانت معاملة العثمانيين لأهل الذمة من المسيحيين واليهود تتصف عموماً بالتسامح ، فلم تكن هناك أى محاولة لإجبارهم على التخلى عن اعتقاداتهم الدينية أو منعهم من القيام بممارسة شعائرهم المقدسة ، وإن فرض عليهم دفع الخراج . وكانت مسئولية الطوائف فى دفع الخراج والحفاظ على الأمن العام تعتبر مسئولية جماعية ، وكانت الدولة لاتتدخل إلا لحماية طائفة يتم الاعتداء عليها من قبل طائفة أخرى .

وبدأ الاحتلال العثمانى للمدن الواقعة على الجانب الأوروبى للإمبراطورية البيزنطية عند منتصف القرن الرابع عشر ، بقيادة سليمان - ابن أورخان - الذى تمكن من الاستيلاء على مدينة غاليبولى . ثم استولى السلطان مراد على أنقرة وحولها إلى عاصمة له بدلاً من بورصة فى ١٣٦٥ ، فأصبحت أكبر مدن الإمبراطورية وصار فيها أكبر الطوائف اليهودية فى البلقان . وتبع مراد الأول وبايزيد الأول السياسة نفسها بتوسيع نفوذ دولتهم فى أوروبا ، فهاجم بايزيد بلغاريا وحارب المغول عند انغورا فجاء مهاجرون يهود من هنغاريا (المجر) كان لودفيك ملك المجر طردهم ليعيشوا فى بلغاريا ، وفى المرحلة الأولى تم الاستيلاء على جميع الأراضى التابعة للدولة البيزنطية الواقعة غربى القسطنطينية ، قبل أن تبدأ عمليات مراد ضد البلغار والصرب . وتابع بايزيد الحرب ضد الهنغار وجنوب اليونان وكان السلاطين الأوائل يقودون المعارك بأنفسهم . وعندما استولى السلطان محمد الأول على أزمير هاجر إليها اليهود وكونوا طائفة هناك .

استمر العثمانيون فى فتوحاتهم الأوروبية فاحتلوا فيليوبوليس وصوفيا (فى بلغاريا) ومدناً أخرى . ثم استولى السلطان مراد الثانى على سالونيكى وإيونيا ومناطق أخرى فى ألبانيا ، وكان مراد الثانى أول من جعل اليهود يرتدون لباساً خاصاً . فكان عليهم ارتداء ملابس طويلة مماثلة لما كان يرتديه اليونان والأرمن ، وكانت قبعاتهم صفراء بينما كانت

قبعات الأتراك خضراء . وتوج العثمانيون انتصاراتهم على بيزنطية بالاستيلاء على القسطنطينية على يد محمد الثانى (الفاتح) فى عام ١٤٥٣ مما وضع كل منطقة البلقان تحت السيطرة العثمانية ، فتحول اليهود إلى القسطنطينية التى صارت مركزاً مهماً لهم ومقراً للحبر الأكبر . وتحسنت أحوال اليهود الاقتصادية والدينية كثيراً عما كانت عليه تحت الحكم البيزنطى مما أدى إلى مجئ المهاجرين اليهود من فرنسا والمانيا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وكان السلطان محمد الفاتح سابع حكام العثمانيين هو الذى أكمل الاستيلاء على أراضى الأناضول عام ١٤٦٥.

وفى السنوات السبع التى تلت الاستيلاء على القسطنطينية ، تمكن محمد الفاتح من ضم بلدان الصرب والبوسنه وألبانيا وكريميا وجزر بحر إيجة إلى الإمبراطورية العثمانية ، وكان العثمانيون منذ بداية حكمهم وحتى عهد بايزيد الثانى يحصرون اهتمامهم فى مد سيطرتهم على الأراضى الأوروبية . إلى أن قام سليم الأول – ثامن السلاطين العثمانيين الذى أجبر أباه بايزيد على التنازل عن العرش – بتوجيه اهتمامه إلى بلدان الشرق الإسلامية، بعد أن نظم جيشاً من الفرسان ووحدات من المرتزقة . وكان المماليك يسيطرون على مصر والشام والجزيرة . شن السلطان سليم حرباً ضد الفرس واستطاع الاستيلاء على كردستان وشمال العراق ، ثم

مد سيطرته على كل العراق بعد ذلك . كما تمكن من السيطرة على أذربيجان لبعض الوقت . وهو الذى حارب المماليك عام ١٥١٦ وهزمهم فاستولى على سورية وفلسطين ثم أخضع مصر والحجاز ، وسرعان ما أتبع هذا بإرسال قواته إلى اليمن . وتمكن العثمانيون أخيراً - فى عصر السلطان سليم - من هزيمة الهنغار المجر فى شرقى أوروبا ، بل أنهم حاصروا مدينة فيينا لاحقاً وإن لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . **وكان الأتراك يعتمدون على عناصر أوروبية من الألبان والسلاف واليونان لقيادة جيوشهم العسكرية .**

وحصل اليهود على بعض المناصب المهمة فى الدولة خصوصاً تلك التى تتعلق بالمسائل المالية ، فعين السلطان سليم أحد يهود القسطنطينية إبراهيم كاسترو وزيراً للمالية مسئولاً عن سك العملة فى مصر ، كما كان ولاة مصر العثمانيون يختارون شخصيات يهودية للقيام بالأعمال البنكية .

وعندما اعتلى سليمان القانونى السلطة عام ١٥٢٠ - بلغت الإمبراطورية العثمانية فى عهده أوج عظمتها - قام بإعادة بناء أسوار مدينة القدس التى لاتزال بقاياها موجودة حتى الآن . وهو الذى بدأ نظاماً ديبلوماسياً جديداً لإعطاء الامتيازات لرعايا الدول الأجنبية عند تواجدهم فى بلدان غير أوطانهم ، فعقد الاتفاقات مع بعض الدول الأوروبية يحصل

بمقتضاها رعاياها على حماية خاصة عند وجودهم فى أراضٍ تخضع للدولة العثمانية وتتوجب حمايتهم وحماية أملاكهم ، واستفاد اليهود الذين قدموا من هذه الدول من تلك الامتيازات فأصبحوا محميين .

وسنحت الفرصة لليهود لاستيطان بعض أجزاء فلسطين فى عام ١٥٦١ ، عندما منح السلطان سليمان مستشاره اليهودى دون چوزيف ناسى امتيازاً على مدينة طبرية الواقعة على الساحل الغربى لبحيرة طبرية مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً . واستطاع چوزيف استجلاب اليهود وتوطينهم هناك ، ومع هذا فشل هذا المشروع لعدم اقبال اليهود على الحياة فى هذه المنطقة الفقيرة ، ومع نهاية القرن السادس عشر كانت غالبية اليهود نزحت عن الأراضى الفلسطينية ، وأصبحت طبرية أطلالاً خلال القرن السابع عشر .

واستمرت السياسة العثمانية فى توسيع رقعة الإمبراطورية قائمة حتى أواخر حكم السلطان سليمان ، فقامت الجيوش العثمانية فى أوروبا بغزو هنغاريا (المجر) والاستيلاء على عاصمتها بودان (التى سميت بودابست بعد ذلك) عام ١٥٢٦ ، وهرب سكانها ولم يبق إلا اليهود الذين رحبوا بالجيش العثمانى وقدموا إليه مفاتيح المدينة ، واستمر الحكم التركى للمجر حوالى ١٦٠ عاماً ، كما مد العثمانيون سلطانهم من مصر غرباً فاستولوا على ليبيا وتونس والجزائر ، وإن لم يتمكنوا من اخضاع دولة

المغرب ، فنزح اليهود المهاجرون من إسبانيا للإقامة فى هذه المناطق .

يدل تاريخ اليهود - بسبب كونهم دائماً يمثلون أقليات دينية واجتماعية فى البلدان التى يعيشون فيها - على أن حالتهم المعيشية تتوقف على نوع المعاملة التى يتلقونها من السلطة السياسية التى يعيشون فى ظلها ومما لاشك فيه أن اليهود كانوا يتعرضون لعمليات من الاضطهاد المستمر من قبل السلطات المسيحية الأوروبية بهدف القضاء على الاعتقادات اليهودية نفسها من خلال تعميد اليهود للدخول فى الكنيسة المسيحية ، وكل الدلائل تشير إلى أن هذه السياسة كانت لتنجح - عدا فى بلاد الخزر القوقازية - لولا ظهور الدولة الإسلامية منذ القرن السابع التى ساوت بين اليهود المضطهدين ومضطهديهم من المسيحيين فى اعتبارهم ذميين من أهل الكتاب . ولهذا كان اليهود يهربون دائما إلى البلدان الإسلامية حيث عاشت غالبيتهم ، إلى أن بدأت حركات التحرر الأوروبية منذ انتصار الثورة الفرنسية فساوت بين اليهود وغيرهم من المواطنين فى المعاملة ، وإذا كان اليهود حصلوا على العلم فى بغداد والفسطاط والأندلس ، وحصلوا على المال فى معظم البلدان التى عاشوا بها ، فإنهم وبكل تأكيد حصلوا على فترة من الراحة والاستقرار فى ظل خمسة قرون من الحكم العثمانى .

كيف اصبح الإشكناز هم « الشعب المختار »
بدلا من بنى إسرائيل ؟!

نحن شعوب لاتهتم بالتاريخ الاهتمام الكافى ـ مع أنه فى أحد التعريفات الحديثة للأمة : ناس لهم تاريخ مشترك ـ بل وللأسف يخضع التاريخ عندنا للتغيير والتبديل . وعندما كذب مناحم بيجن ـ رئيس وزراء إسرائيل الأسبق والحائز على جائزة نوبل ! ـ أمام العالم كله مدعياً أن أجداده بنوا الأهرام ، لم نجد اهتماماً فى الرد عليه بأن بناء الأهرام سبق دخول العبرانيين مصر بقرون طويلة . بل إن بيجن نفسه ليس له علاقة نسب مع أولئك العبرانيين ، فهو پولندى من يهود الإشكناز المنحدرين من قبائل الخزر القوقازية !

عندما تم العثور على مخطوطات البحر الميت - التى تحتوى على معلومات لها أهمية قصوى بالنسبة إلى تاريخ فلسطين ـ قام المسئولون عن الآثار فى الأردن بوضعها تحت تصرف لجنة من ثمانية أشخاص ليس

بينهم باحث عربى واحد . دون أخذ أى صور أو نسخ عنها ، وعندما سقطت القدس والمخطوطات فى أيدى الإسرائيليين أصبح الباحثون فى كل مكان تحت رحمة المسئولين الإسرائيليين - وهم إن اختلفوا عن نظرائهم من العرب - لايسمحوا بنشر إلا مايتفق مع تفسيراتهم هم للتاريخ ، ويحجبون كل شئ آخر .

فى معبد عزرا بمدينة الفسطاط فى القاهرة القديمة - تم العثور على المصادر التاريخية التى تحكى قصة أجداد رئيس وزراء إسرائيل الأسبق من اليهود الإشكناز . فاليهود ينقسمون إلى طائفتين رئيسيتين هما : السفارديم الذين جاءوا من الأندلس- والإشكناز الذين ينتمون إلى روسيا وشرق أوروبا . والأصل أن اليهود يعتبرون أنفسهم من سلالة إبراهيم عن طريق يعقوب بن إسحاق . وهذا الانتساب السلالى أصبح يشكل شرطاً جوهرياً فى الاعتقادات اليهودية ، سواء فى ذلك يهودية الكهنة والتوراة أم يهودية الأحبار والتلمود . والسبب فى هذا - إلى جانب الاعتقاد بإله واحد ليس له صورة - أن اليهود أصبحوا يعتقدون بأنهم حصلوا على وعد من « يهوه » أن يكونوا وحدهم شعبه المختار من بين الأمم ، وأن دلالة هذا الاختيار هو الوعد الذى قطعه مع جدهم الأكبر إبراهيم عندما رآه فى المنام وطلب منه ختان سلالته . ومع أن بني إسرائيل ارتدوا عن الديانة الموسوية لمدة

ثمانية قرون كانوا فيها يسجدون للمعبودات الكنعانية ، إلا أنهم احتفظوا بعادة ختان الأولاد التى تميزوا بها وسط الأقوام الكنعانية والآرامية .

أما بالنسبة إلى الحالات القليلة التى قبل فيها الأحبار اعتناق بعض المنحدرين من سلالة غير إسرائيلية للديانة اليهودية ، فهم اعتبروا أن طقوس القبول التى يقومون بها تمثل - فى حد ذاتها - عملية تبنى للأجنبى ليصبح منتمياً إلى سلالة إسرائيل . لهذا كانت مفاجأة محيرة لأحبار العراق والأندلس عندما وصل إلى علمهم خلال القرن العاشر الميلادى - عن طريق المؤرخين المسلمين - أن هناك شعباً بأكمله ، هو شعب الخزر فى القوقاز الروسية ، اعتنق اليهودية من دون علمهم أو موافقتهم . فكان الانتماء إلى سلالة إسرائيل شرطاً أساسياً لاعتبار الأفراد من طائفة اليهود ، وظل المسيحيون الأوائل فى فلسطين - وهم طوائف العيسويين والنصارى - جزءاً من الشعب اليهودى إلى أن خرج بولس الرسول إلى الأمم . فقد نشب خلاف كبير بين تلاميذ السيد المسيح ، عندما بدأت الدعوة المسيحية منذ ألفى عام ، بخصوص من يجوز تعميده ليصبح جزءاً من الكنيسة الجديدة ، وبينما أصر بطرس على وجوب اقتصار الدعوة على المختتنين من اليهود ، خرج بولس الرسول لدعوة الأمم ، معلنا أن رسالة السيد المسيح أنهت العهد القديم مع أبناء إسرائيل

ليحل مكانه العهد الجديد الموجه إلى جميع الأمم .

وسرعان ماسقطت دولة الخزر - مع نهاية القرن العاشر - أمام زحف جيوش الدولة الروسية الناشئة ، وتشتت الخزر شمالاً في اتجاه بحر البلطيق في كييف وفي مناطق عدة من روسيا وغرباً في هنغاريا وليتوانيا وبولندا بشرق أوروبا . ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن الخزر بعد ذلك ، وساد الاعتقاد بأنهم تركوا اليهودية واعتنقوا المسيحية والإسلام . إلا أنه منذ بداية القرن الحادى عشر ظهرت طائفة يهودية جديدة في المانيا عرفت باسم إشكناز ، الذين لم يلتزموا بتعاليم الأحبار التلمودية واقتبسوا الكثير من العادات الاجتماعية من المجتمعات المسيحية التي عاشوا فيها . ولم يكن هؤلاء يخضعون في أمورهم الدينية لسلطة أحبار اليهود في بغداد ، وكانت لهم تقاليد اجتماعية وطقوس دينية تختلف عن باقي اليهود . وأصبحت كلمة إشكناز تدل على أول منطقة يستقر بها اليهود بكثافة في شمال غربي أوروبا أولاً على ضفاف نهر الراين ، ثم صار التعبير - في اللغة العبرية - يشير إلى المانيا منذ القرن الحادى عشر . في تلك الفترة كذلك - قبل أن تتوحد المانيا - ظهرت اللغة المعروفة باسم « ييديش » بين الإشكناز ، وهي خليط من العبرية والألمانية ، وظهرت منطقة أوروبا الشرقية بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر كموطن لغالبية يهود العالم .

واحتـار الباحثون عن أصل هذه الطفرة المفاجئة فى عدد اليهود : ماهـو مصدر الإشكناز اليهـود فـى روسيا وشرق أوروبا والمانيا ، الذين أصبح عـددهم يعـد بالملايين ؟ ولما تبين للأحبار الربانيين أن غالبـية اليهود الإشكناز - الذين هم غالبية اليهود الموجودين فى العالم الآن - ينحدرون من الخزر الذين اعتنقوا اليهودية خلال القرن الثامن ، وليس من سلالة إبراهيم ، أصبحوا فى حيرة لا يعرفون لها مخرجا . ذلك أن جوهر الدعوة اليهودية يقـوم علـى أن اليـهود هـم سلالة بنـى إسرائيل وهـم ورثة العـهـد الذى أعطاه يهوه فى المنام إلى إبراهيم . وتحاشى اليـهـود السفاردى الاختلاط مع الإشكناز الذين اعتبروهم من الأجانب ، ولكن هذا الحل لـم يفلح إذ كان عدد الإشكناز - وسلطتهم مع مرور الزمن - أكبر بكثير من السفارديم .

وإزاء هذا ، لجأ كتاب القرون الوسطى إلى وسيلتين لإخفاء الأصل الحقيقى للإشكناز : فـهم أولاً لجئوا إلى الأسطورة - ولطالما أخرجت الأساطير مؤرخى إسرائيل من المشاكل من قبل - فزعـموا أن الخزر أنفسهم كانوا مـن سـلالة إسـرائيل وهم يمثلـون ما أطلقـوا عليه اسـم « القبائل العشر الضائعة » أى أنهم من الأقوام التى أبعدها الأشوريون من فلسطين خلال القرن السابع السابق على المسيحية . وبالطبع فإن هذا غير صحيح لأن هذه الأقـوام القليلة العـدد أسكنها الأشوريون فى مناطق

مختلفة من أرض مابين النهرين وسورية وسرعان ما اندمجوا فى مجتمعاتهم الجديدة ، كما أن قبائل الخزر - المعروف أصلها التركمانى من وسط آسيا - لم يظهر كيانهم فى القوقاز إلا بعد ذلك بأكثر من ألف عام . أما الوسيلة الثانية فكانت الإدعاء بأن المانيا هى أرض الإشكناز الأصلية التى منها هاجروا إلى شرق أوروبا وروسيا . وهذا أيضاً غير صحيح ، ذلك أن المانيا - قبل انهيار دولة الخزر وتشتتهم - لم يكن بها سوى بضعة آلاف من اليهود يقيمون فى المراكز التجارية خصوصاً فى « ريجينسبيرج » بالقرب من ميونيخ ، بينما بلغ يهود پولندا ورومانيا والمجر وروسيا ملايين عدة .

وجاء الدليل التاريخى عند نهاية القرن التاسع عشر - الذى يؤكد أن الخزر والإشكناز هم الأقوام نفسها - فى جنيزة معبد عزرا اليهودى بمصر القديمة . وكلمة جنيزة (كنيزة بالعربية) - تعبير يطلق على الأماكن التى تختزن بها الكتابات القديمة ذات الطابع الدينى التى لم تعد تستعمل ولا يمكن تدميرها لأنها تحمل اسم الإله حسب التقاليد اليهودية ، وهى عادة غرفة مخزن ملحقة بالمعبد . وفى جنيزة معبد عزرا - وكان تم بناؤه خلال القرن التاسع على أنقاض كنيسة قبطية بالقاهرة القديمة - تم العثور عام ١٨٩٦ على حوالى مئتى ألف صفحة من المخطوطات القديمة ، نقلت كلها خارج مصر إلى المكتبات العالمية .

ووسط هذه المخطوطات تم العثور على المصادر التاريخية - التى وردت فيها قصة أصل اليهود الإشكناز.

تم العثور فى جنيزة القاهرة على صورة للخطاب الذى كتبه ملك الخزر يحكى فيه قصة اعتناق شعبه للديانة اليهودية .. وكان حسداى بن شبروت - الذى عمل مستشاراً للخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث فى الأندلس خلال القرن العاشر - أرسل خطاباً إلى يوسف ملك الخزر ، يسأله فيه عن أصل اليهود فى مملكته ، وجاء فى الرسالة التى رد بها الملك القوقازى أن اعتناق الخزر لليهودية تم فى أيام الملك بولان قبل مئتى عام ، وأن الخزر هم سلالة يافث ثالث أبناء نوح عن طريق حفيده جومر الذى هو جد القبائل التركية ... وعلى ذلك أوضح الملك انتساب شعبه من الخزر إلى إشكناز صراحة فى رده على خطاب حسداى خلال القرن العاشر ، وحتى نعرف أصل هذه التسمية علينا أن نرجع إلى ماورد فى سفر التكوين أول كتب التوراة بشأن إشكناز . فقد جاء - عند الحديث عن توزيع شعوب العالم الذين قيل إنهم انحدروا عن أبناء نوح الثلاثة حام وسام ويافث بعد الطوفان - أن بلاد الإشكناز تقع فى شرق تركيا فى آسيا ، وأن القبائل التركمانية التى تسكنها انحدرت من جومر بن يافث بن نوح ، بينما ينحدر الإسرائيليون والعرب من أبناء سام : « وهذه مواليد بنى نوح ، سام وحام ويافث ، وولد لهم بنون بعد

الطوفان ، بنو يافث جومر .. وبنو جومر إشكناز » . وعلى هذا فإن اليهود الإشكناز - الذين يمثلون الآن أكثرية يهود العالم - ليسوا ساميين ولاهم ينتمون إلى إسرائيل ولا إلى إبراهيم ، ويكون مناحم بيجن وأجداده لادخل لهم بأهرامات المصريين ولاحتى بأرض بنى إسرائيل ولا ببنى إسرائيل !

مارتن لوثر بين استبداد
الكنيسة الكاثوليكية وتعنت اليهود

تعرضت الكنيسة المسيحية إلى ثورة داخلية كبيرة خلال القرن السادس عشر ، كان لها أكبر الأثر فى تطور وضع الطوائف اليهودية فى أوروبا الغربية أولاً ثم فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك . بدأ الكاهن الألمانى مارتن لوثر عام ١٥١٧ حركة تمرد إصلاحية عرفت بعد ذلك باسم الحركة الاحتجاجية « البروتستانت » . وعلى رغم الطابع الدينى لهذه الحركة إلا أن نجاحها - الذى أدى إلى ظهور تنظيم كنسى بروتستانتى جديد ينازع سلطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية - لم يكن ممكناً من دون تأييد الأمراء والحكام الأوروبيين لها وإعطائها صفة شرعية ، وكان جوهر الحركة الدينية الجديدة يمثل صراعاً بين رجال الدين فى القرون الوسطى وأمراء الأرض والسيادة . ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تمادت فى محاولتها لتصبح هى المصدر الوحيد للشرعية السياسية إلى جانب الشرعية الدينية وفى جميع بلدان الإمبراطورية الرومانية ، إذ

أصبح البابا « يمثل المسيح على الأرض » .

كان رجال الدين منذ ظهور المجتمعات الإنسانية القديمة يمثلون قوة كبيرة في مجتمعاتهم ، والسبب فى المركز الخاص الذى حصل عليه الكهنة هو قدرتهم على التأثير فى أفراد المجتمع ، فقد كانوا يمثلون حلقة الاتصال بين الإنسان والمعبود . فهم الذين كان فى إمكانهم التعرف على نوايا المعبودات وتفسير التعاليم المقدسة . إلى جانب قدرتهم على الشفاعة لدى المعبودات والتأثير فيها لصالح أتباعهم ، وهذا النوع من الكهنوت لايزال قائما فى المجتمعات الحديثة .

وكان رجال الدين فى الأزمنة القديمة يتبعون الحكام الذين كانوا عادة يمثلون رجال الحرب وأبطال القتال . وإذا كان الحكام – إلى جانب إنفاقهم على المعابد والطقوس – هم الذين يقومون بتنظيم المجتمع وحمايته فى مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية وضمان الطعام والشراب لأفراده ، فهم أيضاً الذين يملكون الأرض التى كانت أهم وسائل الإنتاج .

فى الأزمنة القديمة ، وكانوا يحصلون على ضريبة من الأفراد تمثل جزءاً مما ينتجون مقابل حمايتهم والسماح لهم بالحياة والعمل فى الأرض ، وكان الحكام – وإن التزموا بتنفيذ القوانين التى يضعها رجال الدين – يعتبرون من سلالة المعبودات نفسها ، أصبحوا رؤساء للجهاز

الكهنوتى ومصدراً للقوانين التى تصدر باسمهم ، وفى استطاعتهم تغييرها فى أى وقت يشاءون .

ثم جاء موسى فوضع نظاماً لخدمة المعبد وطقوس العبادة - وردت تفاصيله فى كتاب « اللاويين » ثالث كتب التوراة - وجعل مهنة الكهنة وراثية فى سلالة لاوى ، محاكياً فى هذا ما كان متبعاً عند المصريين القدماء . واختار خليفة له من غير الكهنة - وهو يوشع بن نون ليتولى قيادة بنى إسرائيل وأمور الحكم فيهم . إلا أن موت موسى تبعه ارتداد بنى إسرائيل عن ديانته واختفاء الكهنة اللاويين وحاكمهم يوشع ابن نون . ومع أن يهودية الكهنة - التى جلبها عزرا إلى فلسطين خلال القرن الخامس قبل الميلاد - استندت إلى التوراة فى دعوتها ، إلا أنها فرضت علاقة الأفراد بربهم أن تكون عبر كهنة معبد القدس ، وتحولت العبادة اليهودية إلى طقوس كهنوتية أهمها الأضحية التى يقدمها اليهود فى المعبد . وفى محاولتهم للخروج من هذا المجال السلوكى الضيق للديانة ، قال الأحبار منذ نهاية القرن الميلادى الأول بوجود تعاليم تركها موسى الرسول ووصلتهم شفاهة ، تحدد وتنظم تفاصيل تصرفات الناس ليس فى مسائل العبادة فحسب وإنما فى السلوك الاجتماعى كذلك ، وعلى هذا جاء التلمود متضمناً ما يجب أن يكون عليه سلوك اليهود فى شتى نشاطاتهم . واستمرت يهودية الأحبار من دون منازع إلى أن جاء

القـراءون – خـلال القـرن الميـلادى الثـامن – فى محـاولة لتـخليص الاعتقادات اليهودية من سيطرة الأحبار ، فأنكروا أن يكون موسى ترك أى وصايا شفهية ، ورفضوا قبول التلمود واعتبروا التوراة المكتوبة وحدها هى مصدر التعاليم اليهودية فى مذهبهم . ومع أن هذه الحركة لاقت بعض النجاح ولا يزال لها بعض الأتبـاع حتى الآن ، إلا أن يهـودية الأحبـار الربانية سرعان ما استردت نفوذها ، خصوصا بعد أن قام بعض المفكرين المحدثين بشرح وتطوير ما جاء فى التعاليم التلمودية .

أما بالنسبة إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فقد ساد الاعتقاد بأن كهنتها حصلوا على مناصبهم وسلطاتهم عن طريق السيد المسيح نفسه ، حيث قيل أنه منحهم الحق ليكونوا خلفاءه فبحسب الرواية الشائعة إن السيد المسيح عاد إلى الحياة بجسده والتقى بتلاميذه وأعلن أن « على بطرس أقيم كنيستى » وكلمة « بطرس » باليونانية – وهى اللغة التى كتبت بها أو ترجمت إليها الأناجيل – تعنى « الصخرة » أى على صخرة بطرس تقوم كنيسة المسيح . ومع أن بطرس عارض بولس الرسول فى أخذ الدعوة المسيحية خارج المجتمع اليهودى إلى باقى الأمم ، إلا أن أباء الكنيسة الرومانية أقاموا حقهم علـى أساس أنهم خلفاء لبطـرس . وهم رددوا قصة – منذ بداية القرن الثانى – تقول أن بطرس جاء إلى روما ونقل الحق الذى أخذه عـن المسيح فى خلافته إلى كهنتها .. حتى قيل

إن مبنى الفاتيكان الحالى أقيم على ضريح بطرس نفسه ، والهدف من هذه الرواية هو إعطاء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الحق الشرعى فى رئاسة العالم المسيحى .

وجدير بالذكر فى هذا المجال أن قصة مجئ بطرس إلى روما لايوجد ما يثبتها حتى من قبل مصادر الكنيسة الرومانية نفسها . كما تبين من الترجمة الحديثة التى قام بها الباحث البريطانى اينوك باول لإنجيل متى ، أن الجزء الأخير من هذا الإنجيل - الذى يتضمن قصة صلب الرومان للسيد المسيح وقيامته الجسدية ولقائه بالتلاميذ حيث أعلـن خلافة بطـرس - هو إضافة لاحقة ، ولم يكن موجوداً فى أى من الأناجيل فى مصدرها الأصلى .

وقام الباباوات والمجالس الكنسية - بناء على السلطة التى استندوا إليها فى خلافة المسيح - باحتكار عملية تفسير الكتابات المقدسة . فبينما اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أن فهم الكتب المقدسة يجب ألا يتم إلا فى وجود تفسير الكنيسة لها ، كانت المجامع الكنسية والباباوات الكاثوليك يصدرون من القرارات والتعاليم ما يجعلونه ملزما للمسيحيين ، فجاء المصلحون ينكرون حق الكهنة فى إصدار التعاليم الدينية ويعلنون الرجوع إلى ما جاء فى كتبهم المقدسة فقط .

وظهر مارتن لوثر في ألمانيا مع بداية القرن السادس عشر ، وكانت لا تزال مقسمة إلى إمارات صغيرة خاضعة لنفوذ الكنيسة الرومانية . وبعد دراسة اللغة اللاتينية وبعض اليونانية والعبرية إلى جانب اللاهوت والفلسفة والقانون ، ترك الدراسة وأصبح راهبا ثم عين كاهناً في كنيسة « ويتنبيرغ »

وكانت نقطة التحول في حياته عندما سافر في بعثة لزيارة روما حيث أمضى هناك شهراً ، وعاد منها مستاء لما شاهد من علامات الانحلال الخلقي وانعدام القيم الروحانية السامية لدى رجال الدين هناك ، وجاء أول مظهر للاحتجاج الذي قام به لوثر عندما علق بيانا على باب كنيسته يتضمن ٩٥ نقطة تمثل نظريته الجديدة التي أعلن اعتراضه فيها على بعض الاعتقادات والعادات الرومانية الكاثوليكية ومنها بيع صكوك الغفران ، وتعتبر هذه الحادثة بداية الحركة البروتستانتية .

ولما فشلت كنيسة روما في إسكاته لجأت إلى اتهامه بالهرطقة و المطالبة بمحاكمته . فأرسلت إليه عريضة اتهام في آب (أغسطس) ١٥١٨ ، تطلب منه المثول أمام المحكمة في روما خلال ستين يوماً للدفاع عن نفسه ، لكنه رفض الرجوع في اعتراضاته التي أثارها كما رفض الذهاب إلى روما . وكان لوثر حصل على تأييد شعبي كبير خصوصاً بسبب معارضته لسلطة كنيسة روما . ولكن الكنيسة الكاثوليكية

أعلنته ومن اتبعه من المتمردين وحرمت نشر تعاليمه وقامت بإحراق كتاباته في مكان عام ، إلا أن فريدريك أمير ولايته رفض اتخاذ أى إجراء لترحيله إلى روما أو لمنعه من ممارسة دعوته ، واضطرت روما إلى الموافقة على محاكمته فى الإمارة التى يتبعها ، وأصدرت حكماً باعتباره مجرماً ضد الإمبراطورية على أساس أنه هرطوقي يصح قتله عند القبض عليه .

وكان سبب غضب الفاتيكان على لوثر هو اعتراضه على تعاليم الكنيسة التقليدية ، عندما طالب بجعل التجربة الإنسانية الخاصة - وليس الالتزام بتعاليم الكنيسة - محوراً لفكرة الخلاص . وهاجم بشدة صكوك الغفران التى كانت الكنيسة تبيعها للمواطنين لأنها تجعل الناس يعتقدون خطأً بأن شراء هذه الصكوك يكفى للتخلص من نتائج ما يرتكبوه من سيئات وهاجم البروتستانت انعدام القيم الأخلاقية وانتشار الجهل وحب السيطرة على الأمور الدنيوية وجمع الثروة فى تصرفات الكهنة . وأكدوا أن سلطة الكتابات المقدسة تعلو على سلطة البابا وكهنته ، وأن الإيمان الحقيقى أهم من السلوك والمظهر الخارجى . كما نادوا بحق كل مؤمن فى تفهم النصوص المقدسة بنفسه ، ولهذا قام لوثر بترجمة كتب العهد القديم إلى اللغة الألمانية لتصبح فى متناول الجميع . وكان لوثر يعتبر النظام البابوى للكنيسة الكاثوليكية نوعاً من الوثنية ، بسبب استخدام الصور والأعمال الفنية فى الكنائس ، ولم يكن اعتراض لوثر على الأعمال

الفنية نفسها - التى تمثل إلهاماً فنياً يعمق من الإحساس الدينى والروحى - وإنما على استخدام هذه الأعمال كالأصنام يسجد المصلون أمامها . وكانت الكنيسة الكاثوليكية وضعت جسداً يمثل السيد المسيح فوق الصليب وكذلك صورة تمثل السيدة مريم وهى تحمل طفلها داخل أماكن العبادة فى مواضع الصلاة ، بحيث تصبح كالأصنام المعبودة ولذلك نجد أن الكنائس البروتستانتية تخلو من هذه الأعمال .كما صرح لوثر بإمكان تعدد الزوجات فى بعض الظروف عندما أيد حق فيليب أمير مقاطعة هيس فى زواجه الثانى معلناً أن التزوج من اثنتين أفضل من الطلاق ، وكان وافق على تعدد زوجات هنرى الثامن ملك إنجلترا . بل ان لوثر نفسه تزوج - على خلاف الكهنة الكاثوليك - من راهبة سابقة .

ولم ينقذ مارتن لوثر من غضب البابا سوى وقوف الأمراء الألمان إلى جانبه ودفاعهم عنه ، بعد أن وجدوا فى نشاطه فرصة للتخلص من نفوذ الكنيسة الرومانية . وكان لوثر فى كتاباته يعارض حق الكنيسة فى وضع نفسها خارج نطاق الحكام . وانتشرت الحركة اللوثرية فى بلاد الألمان وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، كما أعلن ملكا الدنمارك والسويد أن اللوثرية هى مذهب بلادهما . وسرعان ما انتشرت الحركة الاحتجاجية التى بدأها لوثر إلى شمال أوروبا وتطورت إلى أن أصبحت كنيسة مستقلة بعد ذلك عندما انشقت على الكنيسة الكاثوليكية ،كما شجعت أراؤه

المصلحين الاجتماعيين على المطالبة بإصلاحات فى القوانين الاجتماعية كذلك .

وفى المرحلة الأولى من نشاطه عارض لوثر اضطهاد اليهود ، وكان يأمل بأن يتبعه عدد كبير منهم فى اعتناق مذهبه الإصلاحى ، فكان يوجه دعوته إلى المسيحيين واليهود سوياً ، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية تعتبره « نصف يهودى » . كما رحب به اليهود فى البداية بسبب هجومه على كنيسة روما ، بل إن بعضهم ذهب إلى حد اعتبار مذهبه الإصلاحى يمثل عودة إلى الاعتقادات اليهودية . ومع هذا رفض اليهود دعوته ولم ينضموا إليه . ولهذا فإن لوثر – فى المرحلة الثانية لدعوته – أصبح يهاجم عناد اليهود الذين يتمسكون بتفسيراتهم القديمة للتوراة ويرفضون الاعتراف بيسوع المسيح وكتب رسالتين « عن اليهود وأكاذيبهم » و « عن الاسم غير المنطوق » ووصف اليهود بأنهم « لصوص وقطاع طرق » و « حشرة مثيرة للاشمئزاز » وهى الأوصاف التى كان ينعت بها خصومه من الكهنة والأمراء ، وكانت كتاباته الأخيرة تهاجم البابوية واليهود .

بزوغ عصر النهضة الأوروبية

بعد عشرة قرون من سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على الفكر والسياسة فى أوروبا الغربية ، بدأت حركة لتحرير العقل الإنسانى فى مدينة فلورنسا بوسط إيطاليا . ومنذ أن اصبحت كنيسة روما هى السلطة الدينية العليا فى الإمبراطورية بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية فى القرن الرابع ، تمكن البابا والمجالس الكهنوتية من السيطرة التامة على عقول الملايين من المواطنين وتم إحراق الكتب والمخطوطات التى رأى رجال الكنيسة فيها مخالفة لتفسيراتهم الخاصة ، واختفت كتب الفلاسفة الكبار وأعمال الشعراء والمؤرخين وتم تزوير البعض الآخر ليتفق مع آراء الكنيسة . فالأرض مسطحة وهى مركز الكون ، والإنسان ولد من الخطيئة ، والكهنة يملكون حق الغفران ... عشرة قرون من الزمان أجدب فيها العقل والخيال الإنسانى عن الإبداع فى ظل قيود لاتسمح إلا بسيادة التفسير الكهنوتى ، ليس فقط بما ورد فى الكتب الدينية وإنما لمظاهر الطبيعة وأحداث التاريخ كذلك .

وبينما كان الخلفاء العباسيون فى بغداد يقيمون المناظرات الفلسفية فى

قصورهم ، وتنافس حكام الأندلس فى جمع الكتب وإقامة المكتبات ، أصبح مجرد الاحتفاظ بكتاب لأفلاطون أو أرسطو جريمة لا تغتفر فى إمبراطورية الرومان ، وصدرت الاتهامات بالهرطقة على كل من حاول استخدام العقل فى تفسير التوراة والإنجيل . وفى ظل هذه الظروف ، كان من الطبيعى أن يسود اضطهاد الأقلية اليهودية فى المجتمعات الأوروبية فى القرون الوسطى . ولهذا كان تحرر الفكر الأوروبى من سيادة الكنيسة فى عصر النهضة بداية الطريق لحصول اليهود على المساواة الاجتماعية والدينية فى تلك البلدان . وكلمة « الرينسانس » التى تطلق على عصر النهضة هى كلمة فرنسية تعنى « الميلاد من جديد » أو « البعث » واستخدمها المؤرخون للدلالة على الحركة التى بدأت أولا فى المدن الإيطالية خلال القرن الرابع عشر ثم انتشرت بعد ذلك إلى المانيا وفرنسا وإنجلترا واستمرت حتى القرن السابع عشر .

أدى بروز المدن التجارية فى إيطاليا ، فى أعقاب الحروب الصليبية إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة من التجار والحرفيين ورجال البنوك استقلوا بحكم مدنهم وسمحوا بحرية كبيرة للأفراد فى سلوكهم ، بل إن غالبية الأمراء الجدد هم الذين شجعوا الفنانين والأدباء فى خروجهم على القواعد الروتينية السائدة . واتخذت المحاولات الأولى لتحرير الفكر الإنسانى شكلا فنيا عندما قام الفنانون فى مدينة فلورنسا بمحاكاة النماذج الفنية

الرومانية القديمة فى أعمالهم خصوصاً فى الرسوم والنحت والعمارة .

كما ظهر دانتى ليكتب شعره على غرار الملاحم الرومانية القديمة . وكان الشعر ، وهو الوسيلة الرئيسية للتعبير الأدبى آنذاك ، قد انحط خلال العصور الوسطى بسبب اعتراض الكنيسة على خيال الشعراء وتصوراتهم فأصبح دانتى من أهم شعراء عصر النهضة . وحدثت طفرة كبيرة ليس فقط فى كمية الإنتاج الفكرى وإنما كذلك فى نوعيته ، عندما رجع المثقفون إلى نماذج الفكر الكلاسيكى القديم وراحوا يحاكونها فى الأسلوب والموضوع. وعاد الفنانون إلى الأشكال الفنية اليونانية والرومانية التى سادت قبل العصر الكنسى . وانتشر تعلم اللغة اليونانية بين المثقفين . وكان لظهور حركة اتصال تجارية بين المدن الإيطالية والشرق الإسلامى ، وكذلك لهجرة اليهود من إسبانيا إلى غربى أوروبا أثر كبير فى وصول المخطوطات القديمة التى كان العرب حفظوها من الضياع إلى أوروبا ، فسادت المعارف الفلسفية عن هذا الطريق وانتشرت المدارس الأبيقورية والأفلوطينية . وبات الإنسان البسيط هو موضوع الأعمال الفنية والأدبية واختفت الملائكة والقديسون من لوحات الفنانين ، كما تطور الفكر السياسى والقانونى ، وأصبح حق الأفراد فى تقرير نظم حياتهم بما يتفق ومصالحهم هو المبدأ الجديد فى التعامل . وكان فى هذه الفترة أن تحولت فرنسا إلى أكبر مركز للتعليم فى العالم الغربى ، وظهرت الطباعة فى ألمانيا

حوالى عام ١٤٥٠ ، وانتقلت بعد ذلك إلى إيطاليا حيث ظهرت أولى المطابع فى روما وفينيسيا . وسرعان ما حل الكتاب المطبوع مكان المخطوط المنسوخ عند بداية القرن السادس عشر ، وأحدثت الطباعة أثراً كبيراً فى نشر التعليم مما ساعد على سرعة انتشار أفكار عصر النهضة سواء فى إيطاليا نفسها أو خارجها .

وبينما كانت الإمبراطورية العثمانية تستعد لإسدال الستار على مرحلة ازدهار الفكر الإسلامى فى الشرق ، كان هذا الستار يرتفع فى أوروبا الغربية حيث أدى التعرف على خصائص الفكر الكلاسيكى القديم إلى إعادة تفسير كل ماكان يؤخذ من قبل على أنه قضية مسلم بها فى أمور المعرفة . وحتى كتب العهد القديم والعهد الجديد أصبحت هى الأخرى موضوعا للبحث والتدقيق ، فظهرت مدارس جديدة متخصصة فى هذه الكتابات على أساس من قواعد اللغة والنقد الأدبى ، خصوصا فى هولندا والمانيا . وفى هذه الأخيرة ، إلى جانب ترجمة النصوص اليونانية القديمة ، تمت دراسة النصوص العبرية والعربية وترجمتها فى تلك الفترة .

ولاشك فى أنه كان لأفكار عصر النهضة أكبر الأثر فى إنجاح الحركة البروتستانتية الاحتجاجية التى بدأها مارتن لوثر فى المانيا .

وكانت فرنسا والمانيا وانجلترا محكومة بالأمراء الإقطاعيين الذين ظلوا

يتمسكون بنظم القرون الوسطى . لكن الكهنة والموظفين الذين كانوا - بحكم وظائفهم - يقومون بزيارات لإيطاليا ، أخذوا يجلبون معهم الأفكار الجديدة والرغبة فى المعرفة . وكان أول ظهور لأفكار عصر النهضة فى هذه البلدان فى قصور الأغنياء والمدارس والجامعات . وتكونت « كوليج دى فرانس » فى باريس عام ١٥٣٠ فى عصر الملك فرانسيس الأول .

وانتشرت الدراسات العلمية وتم تأسيس المكتبة الطبية الملكية فى لندن إلى جانب أعمال شوسر وشكسپير الأدبية . فكانت الحركة الفنية التى بدأها الرسامون والمثاليون والشعراء فى المدن الإيطالية خلال القرن الرابع عشر هى التى أكملها بعد ذلك بثلاثة قرون الباحثون والمؤرخون والفلاسفة والعلماء فى بلدان شمال أوروبا .

وعاد الاعتقاد بسيادة العقل الإنسانى ، فاذا كان الإنسان هو أفضل المخلوقات فإن العقل البشرى هو أرقى أعضاء هذا الكائن . وأصبحت المعارف الكلاسيكية من الفكر اليونانى والرومانى القديم هى القاعدة التى منها انتشرت الفنون والدراسات الجديدة ، فكانت النتيجة ثروة من الإنتاج صارت تمثل أساس الحضارة الأوروبية الحديثة .

ولاشك فى أن كل هذا النشاط الفكرى كان له أثره الكبير فى تحرر الإنسان الفرد إزاء سلطة الأباطرة والباباوات ، وصار من حق كل إنسان أن

يطلع بنفسه على الكتابات الدينية ويتفق أو يختلف مع تفسيرات الكهنة لها وكان لانتشار التعليم أثره الكبير فى حلول اللغات المحلية مكان اللغة اللاتينية ، وتمت ترجمة الكتب إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية ، فزاد عدد المتعلمين . وأصبحت العقيدة الدينية تقوم على الإيمان الحقيقى وليس على مجرد حرفية التفسير للنصوص وسلوك البشر .

وبالطبع فإن دور اليهود فى هذه الفترة اقتصر على نقل بعض الكتب والمخطوطات من بلاد الأندلس إلى المراكز الأوروبية الغربية . ولكن نظراً إلى وجودهم فى طوائف مغلقة داخل هذه الكيانات ، لم يكن لهم دور بالمشاركة فى عصر النهضة ، ومع ذلك أدى انتشار الفكر الجديد إلى السماح لليهود بالمشاركة منذ القرن الثامن عشر فى أعمال الجامعات والمدارس الفكرية الأوروبية ، حيث ظهر فلاسفة يهود للمرة الأولى فى التاريخ ذلك أن يهود الأندلس كانوا يقتبسون مذاهب المدارس الإسلامية كما هى من دون تغيير . ولسوف نرى كيف هيأ عصر النهضة لقيام الثورة الفرنسية بعد ذلك ، وما كان لذلك من أثر كبير فى تشكيل النظم الأوروبية الحديثة وفى إطلاق سراح اليهود نهائيا من قيود العزلة والتفرقة العنصرية .

ظهور الأوراق المالية والبنوك
يدعم موقف الطوائف اليهودية

كان اليهود داخل الكيان الرئيسي للنظام البنكي منذ بدايته ، وتحول دورهم المكروه سابقاً في القيام بعمليات الربا إلى دور شريف مع ظهور البنوك . والسبب في هذا هو تحريم الكنيسة للإقراض بفائدة ، في الوقت الذي ظهرت حاجة التجار للحصول على تسهيلات مالية ، لإتمام عمليات الشراء والبيع في مجتمع المدن الجديد وعلى نطاق يشمل دول العالم بأكمله .

فالنشاط الاقتصادي في عالمنا الحديث - سواء كان للمؤسسات التجارية أو غيرها أو حتى للأفراد - يحتاج إلى المعاملات البنكية ، ويعتمد نجاح العمليات الاقتصادية الحديثة إلى حد كبير على وجود نظام بنكي في استطاعته تقديم الخدمات المالية الضرورية لعملائه ، ولا يمكن الاستغناء عن البنوك في نظام السوق الحالي ، حتى الدول التي تبعث النظام الشيوعي تجد أنها في حاجة إلى الاحتفاظ ببعض الأعمال البنكية

والبنك هو جهاز مالى يحتفظ بالودائع المالية ويقوم بعمليات الإقراض ونقل الأموال عن طريق الأوامر المكتوبة . وللبنوك فى النظم الاقتصادية الحديثة دور آخر فى تنظيم عمليات السوق ، ذلك أن رجال الاقتصاد الحديث أصبحوا يقولون بوجود علاقة بين كمية النقود المتداولة فى السوق مع الأفراد - وكمية البضائع والخدمات المطروحة ، أى الناتج القومى . فإذا زادت النقود عن الانتاج حدث التضخم ، حيث تقل قيمة العملة وترتفع الأسعار . وأدرك رجال السياسة أهمية عامل النقود فى السيطرة على المسار الاقتصادى ، فإذا كانت السيطرة على المسار الاقتصادى تتطلب العمل على زيادة الطلب وزيادة حجم التعامل فى الأسواق ، فإن البنوك تقوم بتخفيض نسبة الفائدة التى تحددها على القروض فتزداد طلبات الإقراض ويزداد حجم الأموال المتداولة فى السوق فيزيد حجم الشراء والتعامل . أما إذا كانت السياسة الاقتصادية - خوفاً من التضخم - تهدف إلى تقليل الطلب حتى تنخفض الأسعار ، فإنه من الممكن عن طريق رفع سعر الفائدة أن تشح الأموال فى السوق وبالتالى ينخفض الطلب ويقل الشراء . وبالطبع فإن الحكومة تسيطر على تحديد سعر الفائدة وأحياناً قيمة العملة عن طريق البنك المركزى الذى يخضع لها .

ظهرت الأعمال البنكية أولاً فى الدولة الإسلامية ، ففى أيام الخلافة

العباسية خلال القرن الثامن انتقل يهود العراق من القرى تاركين أعمال الزراعة واستقروا فى المدن الإسلامية الجديدة واحترفوا المتاجرة وأعمال البنوك . وكان هذا هو الوضع كذلك فى مصر الفاطمية. إلا أن مركز اليهود ونشاطهم التجارى تضاءلا كثيراً فى أيام الدولة الأيوبية بينما ازدهر النشاط البنكى اليهودى فى قرطبة بالأندلس فى الفترة نفسها .

ومع بدء النشاط التجارى فى أوروبا خلال القرن الحادى عشر - بسبب الحروب الصليبية التى فتحت باب الاتصال بين أوروبا والشرق الإسلامى - بدأ نظام البنوك ، خصوصاً فى المدن التجارية التى ظهرت فى إيطاليا خلال القرون الوسطى . وكانت وظيفة البنوك فى البداية القيام بعمليات التسليف وعمليات تغيير العملات . وكان اليهود - بحكم تعاملهم السابق فى الربا - أول الناس وأكثرهم اشتغالا بالتعاملات البنكية ، خصوصا أن الكنيسة كانت تحرم القروض مقابل فائدة ، وكان الملوك والأمراء يصدرون عملات باسمهم . وإذا كانت الحروب الصليبية أدت إلى فقدان اليهود لسيطرتهم السابقة على عمليات التجارة بين الدول الإسلامية وغربى أوروبا ، إلا أن سيطرتهم على الأعمال البنكية زادت فى هذه الدول .

وفى البداية كانت قيمة العملة تتوقف على نوع المعدن المستخدم فى إنتاجها وعلى ثقله ، وكان المتعاملون فى حاجة إلى خبراء يدلونهم على قيمة العملات المختلفة ، وما يقابلها من العملات الأخرى . ومع حلول

النصف الثانى من القرن الثانى عشر بدأ اليهود ينظمون عمليات تسليف تجارية ، أى القروض غير الموجهة للشخص المحتاج وإنما للتاجر الذى يهدف إلى تحقيق ربح من إتمام صفقة تجارية ، وظهر التعامل بالشيكات والكمبيالات وظهرت أوراق البنكنوت منذ نهاية القرن الثامن عشر ، أصدرتها بنوك خاصة أولاً ثم تولت الحكومات إصدار العملات النقدية وعداً بدفع قيمتها المعدنية فى البداية ، أصبحت بعد ذلك تستمد قيمتها من ضمانات الحكومات والبنوك لها ولا حاجة لاستبدالها بالمعادن .

وأصبحت البلدان تنظم الأسواق لتبادل الأوراق المالية ، ذلك أن الشركات والمؤسسات وكذلك الحكومات والأفراد ، دائما ما يكونون فى حاجة إلى الحصول على كمية من النقود أكثر مما يملكون ، حتى يتمكنوا من تنفيذ بعض عملياتهم الإنتاجية أو التجارية . ولذلك فهم يقومون باقتراض هذه الاموال من السوق مقابل دفع فائدة للمقرض . وقد تصدر الحكومة أو بعض المؤسسات سندات ذات مدة محددة - تكون قابلة للتداول فى السوق - وتعطى ضماناً بدفع قيمتها النقدية عند انتهاء المدة إلى جانب الفوائد المقررة عليها . وبالطبع فإن التعامل فى الأسواق المالية يخضع لضغوط التنافس المشابهة للتعامل فى أى سلعة أخرى ، فهناك من يعرض دفع فائدة أعلى أو تقديم ضمانات أكبر أو يربط الفائدة بمسابقات لمنح الجوائز والهدايا . وتقوم البنوك التجارية بأهم دور فى سوق الأموال ،

فهى لا تمنح القروض فقط وإنما تلعب دور الوسيط والممول كذلك .

ومن الأمثلة المعروفة لنجاح العائلات اليهودية الأوروبية فى مجال الأعمال البنكية عائلة روتشايلد . ويرجع هذا الاسم إلى الدرع الأحمر الذى كان يعلقه مؤسس هذه الاسرة « إسحق الحانان » على واجهة منزله بمدينة فرانكفورت الألمانية خلال القرن السادس عشر ، وكانت العائلة تقوم بأعمال التجارة وخصوصاً فى التحف والعملات القديمة ، وكذلك فى تغيير العملات . وبدأت أهمية العائلة تتزايد عندما نشأت علاقة بين أحد أفرادها « ماير امستشل » وأحد الأمراء الألمان الذى كان يهوى جمع العملات . واستطاع ماير الحصول على ثروة طائلة عندما عهد إليه الأمير « وليام التاسع » بالإشراف على استثمار أمواله وإقراضها للآخرين مقابل عمولة . وتوزعت عائلة روتشايلد بعد ذلك بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، وكان التعامل يتم بين فروع العائلة المختلفة لحساب عملائهم من دون حاجة إلى نقل النقود وبمجرد صدور التعليمات مما أكسبهم عنصر السرعة وقلة المخاطرة عند نقل الأموال ، حتى إن الحكومات الأوروبية نفسها كانت تعتمد عليهم فى نقل أموالها فى الحالات المستعجلة .

وهكذا نجد أنه عند نهاية فترة الظلام الفكرى فى أوروبا على أثر انهيار نظام القرون الوسطى ، فإن النظام الاقتصادى الأوروبى نفسه كان يتغير بشكل سريع . وبينما أدى ضعف نفوذ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى

تغيير نظرة الحكومات والأفراد إلى الأقليات غير المسيحية التى تعيش بينهم – وأهمها الطائفة اليهودية – فإن التحول الاقتصادى أدى إلى أن يصبح دور الممول اليهودى الجديد أساسيا للطبقة التجارية النامية ولم يعد يعتمد على عمليات الربا القديمة التى كانت من أهم أسباب كره الناس لهم . ومع بداية النهضة الصناعية عندما بات المنتجون الجدد فى حاجة إلى مبالغ طائلة من المواد الخام والأيدى العاملة والتسويق إلى أن يتم حصولهم على ثمن منتجاتهم بعد بيعها ، أصبح دور البنوك جوهريا فى النظام الصناعى الجديد . ومع زيادة أهمية الممولين اليهود ، أصبح هناك الكثيرون منهم الذين حصلوا على مناصب مهمة فى الدولة ، والمؤسسات الخاصة . ومع اقتراب الثورة الفرنسية التى غيرت الشكل الاجتماعى والسياسى للحياة الغربية ، فإن نظرة الأوروبيين إلى اليهود تغيرت وظهر الكثير من الأصوات التى تعارض اضطهاد الأقلية اليهودية وتطالب بمنحها المساواة فى الحقوق والواجبات مع باقى أفراد المجتمع .

الركود الفكرى فى السلطنة العثمانية

أصاب الجماعات اليهودية رغم ازدهارها الاقتصادى

كان المهاجرون اليهود وصلوا من إسپانيا والبرتغال خلال حكم بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) ولعبوا دوراً اجتماعياً مهماً خصوصاً فى الأعمال البنكية ، وأصبح چوزيف ناسى من أعلام هذه الطائفة مقرباً من السلطان ، ولما صارت القسطنطينية - التى استولى عليها محمد الثانى عام ١٤٥٣ - هى عاصمة الإمبراطورية ومقر القصر السلطانى الذى عرف باسم « الباب العالى » تجمع اليهود الذين كانوا يقيمون فى البلدان التركية وأصبحوا يكونون جالية كبيرة بالعاصمة العثمانية ، وتحسنت ظروفهم الاقتصادية والدينية كثيرا عما كانوا عليه تحت الحكم البيزنطى ، وعامل بايزيد الثانى اليهود معاملة طيبة ، وسمح للهاربين من إسپانيا والبرتغال بالمجئ إلى القسطنطينية بعد أن رفضت الدول الأوروبية استقبالهم ، كما استقر بعضهم فى سالونيكى ومصر .

بدأ سليم الأول (١٥١٢) مرحلة جديدة من الغزوات ، بعد أن أجبر

والده على الاستقالة ، وبعد أن بنى الأسطول وأنشأ سلاح الفرسان حتى يتغلب على المماليك ، وكانت سلطتهم تمتد على أرض الشام ومصر والحجاز . وبدأ حرب العثمانيين ضد المماليك العام ١٥١٦ وألحق سليم بهم هزيمة كبيرة عند مدينة حلب فى آب (أغسطس) وتمكن قبل نهاية العام من الاستيلاء على سورية وفلسطين ، وسرعان ما سقطت مصر والحجاز فى أوائل العام التالى . وجعل السلطان من نفسه خليفة على المسلمين بعد استيلائه على الحرمين الشريفين . وتبعه عام ١٥٢٠ ابنه السلطان سليمان الذى استمر حكمه ٤٦ عاماً ، وهو الذى أصدر القوانين التى تنظم الحكم فى الولايات العثمانية ، كما غزا العثمانيون اليمن عام ١٥٤٦ فى أيام سليمان الأول ، وان كانت سيطرتهم هناك لم تستمر طويلا حيث طردهم الإمام المطهر من صنعاء ١٥٦٩ ، وهو الذى عاقب اليهود لمعاونتهم الأتراك الغزاة ، وبلغت الدولة العثمانية أوج عظمتها خلال حكم السلطان سليمان الذى بدأ نظام حماية الرعايا الأجانب باتفاقات خاصة مع الدول الأجنبية ، واستطاع العديد من اليهود الذين هاجروا من دول أجنبية الإفادة من هذه السياسة بالحصول على امتيازات فى الأمن وحسن المعاملة . وعلى العموم كانت الأقليات الدينية تحصل على استقلال دينى واجتماعى داخل الملة (الطائفة) خارج قوانين المجتمع ككل .

استمرت محاولة الأتراك لمد نفوذهم إلى بلدان شمال إفريقيا ولم يتمكنوا من السيطرة على مراكش وإن كانوا استولوا على ليبيا وتونس والجزائر . أما بالنسبة إلى العراق فقد واجه العثمانيون مقاومة عنيفة من القوات الفارسية التى كانت تسيطر على بغداد . ومع أن السلطان سليمان تمكن من هزيمة الفرس والاستيلاء على بغداد عام ١٥٣٤ بعد أن كان استولى على عاصمتهم تبريز ، فقد اضطر العثمانيون إلى تركها بعد حوالى تسعين عاما بسبب هجمات الفرس إلا أن الأتراك العثمانيين بمساعدة اليهود العراقيين عادوا فاستولوا على العراق مرة ثانية عام ١٦٣٨ وظلت فى أيديهم هذه المرة ٢٨٠ عاماً إلى أن تمت هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ . وكافأ السلطان مراد اليهود لمساعدته على هزيمة الفرس ، كما عين رئيس الجالية اليهودية هناك ايزكيل جباى فى وظيفة صراف فى حكومته .

بعد النجاح العسكرى الذى حققه السلاطين العثمانيون فى أيام سليم الأول وابنه سليمان ثم سليم الثانى ، بدأ الضعف يدب فى جسد الإمبراطورية المترامية الأطراف منذ أيام مراد الثالث .

ووجدت الإمبراطورية العثمانية نفسها أمام منافسين جدد عند نهاية حكم السلطان سليمان الأول (١٥٦٦) ، مع ظهور المملكة النمسوية

كقوة عسكرية على حدودها الأوروبية غرباً والإمبراطورية الصفوية الفارسية على حدودها الشرقية فى آسيا ، وعندما بدأ بطرس قيصر روسيا الموحدة فى نهاية القرن الثامن عشر يتطلع إلى السيطرة على المنافذ الموصلة إلى البحر الأبيض ، كانت هذه بداية النهاية بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية التى لم تستمر بعد ذلك إلا بسبب رغبة الأوروبيين فى تحقيق الاتفاق فيما بينهم أولاً على كيفية تقسيم الأراضى العثمانية .

ولا شك فى أن جوهر المشكلة العثمانية هى أنها لم تحاول تدعيم نجاحاتها العسكرية ببناء قاعدة اقتصادية قوية ، فالزراعة كانت فى يد فلاحين مضطهدين بشكل مستمر مطلوب منهم دفع نفقات الحكام واللصوص كذلك . والتجارة كانت فى يد الإيطاليين الذين اشتركوا فى تكوين الأسطول البحرى . كما أن انعدام وجود طبقة وسطى فى المجتمع العثمانى منع ظهور بدائل إصلاحية جديدة . فالطبقة الوسطى عادة ماتكون طموحة ومجددة وتعمل على استخدام الثقافة للوصول إلى الجديد من الاختراعات والأفكار . كما أن إهمال اللغة العربية ، بل والشعوب العربية نفسها ذات الحضارة القديمة ، جعل الدولة العثمانية تبدو وكأنها مجرد مغامرة عسكرية ناجحة لم تتمكن من تشييد بناء حضارى . وكانت اللغة العربية هى القوام الأساسى للحضارة الإسلامية حتى فى بلاد الأندلس الإسبانية . وعندما أدخل العثمانيون الطباعة إلى

دولتهم عام ١٧٢٧ – وكانت ظهرت فـى ألمانيا قبل قـرنين ونصف القرن – حددوا دورها بطباعة النصوص التركية وحدها ، لتعليم أولاد الطبقة العليا التى منها يأتى الوزراء والمسئولون الحكوميون .

واستخدم السلاطين والوزراء العثمانيون عدداً كبيراً من الأطباء اليهود الذين – بسبب هذه الوظيفة – تم استثناؤهم من دفع بعض الضرائب ، كما أنهم استخدموا نفوذهم لدى الحكام لمساعدة الطوائف اليهودية . وكان اليهود تعلموا الطب فى الأندلس . ومع مرور الزمن وصلت الأجيال اليهودية العثمانية إلى حال الجهل والأمية نفسها التى أصبحت فى بقية الشعوب التى خضعت لآل عثمان ، ولهذا نجد أن زمام النجاح فى المرحلة التالية انتقل إلى يد اليهود والإشكناز الذين ظلوا فى أوروبا وأشرقت عليهم شمس عصر النهضة هناك .

شابتاى زيفى : « مسيح » اليهود
الذى اعتنق الإسلام !

فكرة « الخلاص » هى الحلم الذى يداعب الإنسان منذ القدم . ومحوره الاعتقاد بخلود الروح واستمرار الحياة بعد الموت . ولما كانت الاعتقادات الدينية لليهود تقوم على أساس الخطيئة ، خطيئة آدم عندما خالف تعاليم الرب وأكل من الشجرة المحرمة ، وخطيئة بنى إسرائيل عندما تركوا ديانة موسى وعبدوا آلهة الكنعانيين ، فإن التوبة عن الذنوب وطلب غفران الرب هما الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى الحصول على منحة الحياة الأبدية . ولم تكن فكرة الخلاص والأبدية فى بدايتها مرتبطة بشخصية المسيح المخلص ، وإنما كان « المسيح » هو أحد ألقاب الملوك القدماء .

والواقع أن كلمة المسيح لم تكن فى أصلها من اللغات السامية ولم يعرفها أبناء إسرائيل فى المراحل الأولى من تاريخهم ، وإنما هى كلمة مصرية الأصل . كان المصريون هم الوحيدون من بين الشعوب القديمة الذين يقومون بدهان الملك بالزيوت والعطور عند تنصيبه وقبل جلوسه على

العرش ، كما كانوا يدهنونه بزبدة التمساح - وهى عادة ماتزال موجودة فى بلاد النوبة حتى وقتنا هذا - لاعتقادهم بأن هذا سيجلب له سلالة قوية . وكان الملك الجديد ، بسبب عملية الدهان هذه ، يتلقى لقب « مسيح » من بين ألقابه ، ذلك أن التمساح بالمصرية القديمة كان يسمى « مسح » وكان اللقب الملكي يكتب باستعمال تمساحين لينطق « مسيح » وحتى الكلمة الدالة على عملية الدهان بالزيوت « مسح » اشتقت من اسم التمساح المصرى وعلى هذا كانت كلمة « مسيح » عند بدايتها تعنى « الملك » وكانت لقباً يطلق على كل الملوك المصريين . ثم بدأ كتاب العهد القديم من العبرانيين يستخدمون هذه الكلمة للدلالة على ملوك بنى إسرائيل ، بداية من شاؤول وداود فى القرن العاشر قبل الميلاد ولم يرتبط لقب « المسيح » بدور « المخلص » - أى الذى يدعو الناس إلى التوبة ويعدهم بالحياة الأبدية فى مملكة الرب - إلا بعد أن رفض بنو إسرائيل الاعتراف بأن يسوع هو « مسيحهم » بمعنى ملكهم . فمنذ أن آمن أتباع يسوع بقيامته من بين الأموات ، أصبحت كلمة « مسيح » تعنى المخلص .

ولم يرد ذكر يوم القيامة والحياة بعد الموت فى التعاليم الموسوية التى وصلتنا ، والتى اكتفت بالحديث عن وحدانية الرب . وعلى هذا أنكرت يهودية الكهنة وجود حياة بعد الموت ، وإن كان الأحبار بعد ذلك قالوا

بخلود الروح . وكان اليهود ينتظرون قدوم المسيح على أنه « الملك الممسوح » الذى سينصرهم على أعدائهم ويجعلهم شعب الله المختار ، فيحكمون العالم تحت قيادته . إلا أن اعتقادات أهل القبالة فى القرون الوسطى أضفت طابعاً روحانياً على دور المسيح يشبه إلى حد كبير دور يسوع عند المسيحيين ، وفى العبرية يستخدم التعبير « هاميليخ هامشيح » (الملك الممسوح) للدلالة على المسيح الذى ينتظره اليهود . وهم يقولون إنه سيكون من سلالة داود . وفى القرون الوسطى بعد أن تم طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال ، وفى وقت لم تكن هناك قيادات موحدة ليهود الطوائف المنتشرة فى معظم بلدان العالم ، بدأ الشعور بضرورة أن يجتمع اليهود تحت قيادة واحدة من بينهم وأن يتحرروا من سيطرة الغير عليهم . وفى هذه الظروف ظهرت موجة كبيرة معادية لليهود فى روسيا وبولندا عندما قام القوزاق الروس بزعامة خميلنيتسكى بمذبحة لليهود الإشكناز ، راح ضحيتها عشرات الألوف فى أوكرانيا ، وبولندا فى عام ١٦٤٨ ، واستمرت عشر سنوات .

كما كان مذهب القبالة الجديد الذى نادى به إسحاق لوريا خلال القرن السادس عشر - الذى يقول بضرورة الصلاة من أجل مجئ الخلاص - سيطر على الفكر اليهودى فى هذه الفترة . وركز أهل القبالة

اهتمامهم على سلوك الزهد والتأمل ، وكانوا يعتقدون بضرورة مجئ المسيح المخلص ، وهم يعملون بتعبدهم على الإسراع فى قدومه . ومن دائرة القبالة ظهر « المسيح الجديد » لليهود ، شابتاى زيفى الذى أصبح خلال بضع سنوات أمل يهود العالم فى الخلاص .

ولد زيفى فى مدينة أزمير التركية عام ١٦٢٦ لعائلة من التجار الأغنياء ، ولم يتبع طريق التجارة والأعمال الذى ولد فيه وإنما لجأ إلى طريق الدراسة والتأمل ، فدرس التلمود وفلسفة القبالة ، وأصبح حاخاماً عندما بلغ الثامنة عشرة ، وكانت له شخصية جذابة وقدرة على التأثير فى الآخرين . عاش صباه فى مجتمع الدولة العثمانية ، فى عزلة وتأمل يصارع قوى الشيطان ، وكان يقوم بطقوس للعبادة ليس لها أصل فى التقاليد اليهودية وقد تخالفها أحياناً . وشجع ظهور زيفى فى أزمير توقعات الخلاص عند اليهود . وكان هناك اعتقاد سائد آنذاك يقول إن قدوم المسيح وتحقيق الخلاص سوف يتمان فى عام ١٦٦٦ . وأعلن زيفى بأنه هو المسيح المنتظر الذى سيأتى على يده الخلاص ، وأعلن نفسه مسيحاً عام ١٦٤٨ ، بعد سماع أخبار مذابح اليهود فى شرق أوروبا ، وقال إن هذا الأمر أوحى إليه من الروح الإلهية . وغضب أحبار طائفة أزمير على زيفى ، وقام معلمه الحبر جوزيف اسكابا رئيس الطائفة اليهودية فى أزمير بإعلان شابتاى خارجاً على التعاليم اليهودية - بعد أن تم جلده تأديباً .

ولم يرتدع – وطرده من الطائفة ، وطلب من اليهود عدم التعامل معه ، فسافر إلى بلاد اليونان وأقام في سالونيك مدة طويلة ثم انتقل زيفي إلى أثينا والإسكندرية (١٦٦٢) والقاهرة ، وزار القدس عام ١٦٦٥ وتبعه عدد كبير من اليهود إليها . وعند عودته من القاهرة إلى فلسطين قابل الحبر ناثان في غزة الذى أعلن أنه تلقى رؤية جاء فيها أن شابتاى هو مسيح إسرائيل . وكان لإعلان ناثان الغزاوى – الذى كان الناس يعتقدون بقدرته على معرفة الأسرار – بأن زيفي هو المسيح اليهودى الموعود ، أثر كبير في حركة الشباتيين في شباط (فبراير) ١٦٦٥ ، وزاد اقتناعهم بأن زيفي هو المسيح الذى ينتظره اليهود ، الذى تنبأ البعض بقدومه عام ١٦٦٦ . وبدأ الاعتقاد ينتشر ليس فقط بين عامة اليهود وإنما بين الأحبار كذلك بأن زيفي هو المسيح المنتظر . واختار هذا من بين أتباعه اثنى عشر حواريا ليمثلوا أسباط إسرائيل .

وفي حزيران (يونيو) ١٦٦٥ طاف زيفي وهو على صهوة حصانه حول مدينه القدس سبع لفات ، بينما كان أتباعه والأحبار يسيرون في موكبه ، وأعلن ناثان الغزاوى ضرورة توبة اليهود لتسهيل قدوم الخلاص وسرعان ماوصلت الأخبار إلى جميع أنحاء المعمورة ، تبلغ الطوائف اليهودية عن عظمة المسيح ، وحلول وقت التوبة والخلاص . وانتشرت الروايات والأساطير الشعبية عن زيفي وكيف أنه بعد فترة من الزمن

سيجلس على عرش السلطان ويصبح مسيح اليهود سلطاناً على العالم ويضع التاج على رأسه عام ١٦٦٦ بحسب ما قالت التنبؤات . وعاد مسيح اليهود إلى بلدته أزمير ، واستقبلته جماهير اليهود وأحبارهم فى الطريق بالفرحة والحماس ، وتجمع حوله عدد كبير من أتباعه بحماس شديد مما جعل القلق يساور السلطات العثمانية .

وفى صلاة السبت امتنع الأحبار - عن الدعاء للسلطان التركى ، وجاء دعاؤهم إلى زيفى « المسيح الملك » وخلال احتفال ساده الرقص والغناء وحلت فيه الفرحة ونور الأحلام قام الملك الجديد بتوزيع ممالك الأرض على من تبعه من اليهود ، وعين الوزراء وكبار رجال دولته الجديدة ثم اصطحب عدداً من هؤلاء الملوك والأمراء الوهميين الذين عينهم معه فى رحلته إلى استنبول فى أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٦٦٥ ، فى طريقه لتولى العرش . ومع أن هذه التمثيلية كانت تتم على هامش التاريخ بعيداً عن المجرى الحقيقى للأحداث فى السلطة العثمانية ، إلا أن مسيح اليهود وأتباعه كانوا على ثقة تامة من أن المعجزة سوف تتحقق ويتحول الحلم إلى حقيقة عند وصول زيفى إلى العاصمة . وعندما بدأ رحلته من أزمير إلى العاصمة ، تم القبض عليه بمجرد وصوله إلى تخوم المدينة ووضع فى سجن غاليبولى ومع ذلك ظل وهو فى سجنه مثل الملوك يستقبل البعثات التى جاءت لتقدم له فروض الولاء وأتى يهود

أزمير – بمن في ذلك الأحبار – ليقبلوا يد زيفي قبولاً منهم بأنه هو المسيح .

وبالطبع فإن السلطة العثمانية – عندما علمت بأطماع زيفي وأحلامه – انزعجت من قدومه إلى مركز الباب العالى . فأمر أحمد كوبريلي كبير وزراء السلطان بنقل زيفي إلى الديوان وعامله معاملة حسنة واحتجزه في مكان مريح كان يستقبل فيه الزوار الذين جاءوا يهنئونه بسلامة الوصول ، ثم استدعاه السلطان العثمانى محمد الرابع إلى مجلسه . ويقال أن السلطان خيره إما قبول الموت في سبيل رسالته أو التراجع عن دعواه بأنه المسيح . فأعلن شابتاى إسلامه فى ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٦٦٦ ، واتخذ اسم « عزيز محمد أفندى » وأعطاه السلطان وظيفة شرفية على أنه حامى حمى باب القصر ومنحه معاشاً . وسرعان ما تبعه عدد كبير من تلاميذه الذين تحولوا هم كذلك إلى الإسلام ، وأصبحوا وسلالتهم من بعدهم – الذين استمروا على اعتقادهم بأن شابتاى هو المسيح – يعرفون بين اليهود باسم « الدونمه » بمعنى المرتدين . وواصل الحبر ناثان الغزاوى ، الذى أصبح يلتقى بزيفي ويتلقى منه التعليمات ، تأكيد أن شابتاى مازال هو مسيح اليهود على رغم إسلامه . وكان شابتاى يمارس الشعائر الإسلامية إلى جانب بعض الشعائر اليهودية التى لاتتعارض معها ، وكان يدعو اليهود إلى قبول شريعة الإسلام التى

اعتبرها تمثل « توراة المغفرة » . وسرعان ما انتشر مذهب الشباتيين انتشاراً غير طبيعي في جميع أنحاء المعمورة ووجد له أتباعاً حيثما وجدت الطوائف اليهودية من القاهرة إلى هامبورج ومن سالونيك إلى اليمن ومن پولندا إلى بلاد الفرس . ومع هذا قررت السلطات العثمانية نفى زيفى إلى مدينة صغيرة فى ألبانيا ، بعيدا عن العاصمة ، وقضى فيها آخر أيامه إلى أن مات عام ١٦٧٦ وأصيب يهود العالم بالإحباط بسبب اعتناق « مسيحهم » للديانة الإسلامية بدلا من محاولة نشر اليهودية فى جميع أنحاء العالم كما كانوا يعتقدون .

كيف أصبحت بولندا الموطن الرئيسي لليهود الإشكناز ؟

فى الوقت الذى استطاع اللاجئون من اليهود السفارديم الهاربين من إسبانيا والبرتغال الحصول على الملجأ الأمين فى رحاب القسطنطينية ، ونال يهود العراق البابليون الأمان وحرية العبادة فى رحاب آل عثمان ، بدأ اليهود الإشكناز فى بولندا يظهرون فى الأفق كقوة فاعلة فى التاريخ اليهودى ، على رغم حياة المعاناة والاضطهاد التى عاشوها . وكان القرن السابع عشر هو بداية انتقال مركز الثقل داخل الكيان اليهودى من بقايا سلالة بنى إسرائيل الذين انتشروا فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، إلى سلالة الخزر القوقازية التى انتشرت فى بولندا وروسيا وألمانيا . وأصبحت مملكة بولندا - ليتوانيا ، التى كانت تسيطر على أوكرانيا وساحل البلطيق آنذاك ، هى موطن غالبية يهود العالم الذين انحدر من سلالتهم معظم الطوائف اليهودية الموجودة الآن . فبعد انهيار دولة الخزر فى القوقاز التى تسميها المصادر الروسية القديمة « أرض اليهود » انتشرت غالبية الخزر

اليهود إلى أوكرانيا وليتوانيا وبولندا ، وصاروا يشكلون نسبة عالية من سكان هذه البلاد خصوصاً فى المدن بعيداً عن الأراضى الزراعية .

كانت الأقوام الروسية بدأت تظهر على الأفق السياسى منذ القرن التاسع الميلادى فى المنطقة الممتدة بين البحر الأسود جنوبا وبحر البلطيق فى الشمال ، وكانت كييف عاصمة أوكرانيا أهم المدن الروسية فى تلك الحقبة الأولى . وعندما سقطت مملكة الخزر فى أوكرانيا الروسية وبلدان شرق أوروبا حيث وجدوا موطنهم الجديد هناك ، ومع قدوم المغول التتر من شرقى آسيا خلال القرن الثالث عشر ، انهارت الإمارات الروسية وأصبحت البلاد خاضعة تماماً للغزاة .. وتم عزل روسيا عن الدولة البيزنطية وعن ساحة الأحداث السياسية فى القارة الأوروبية . إلا أن ليتوانيا استطاعت أن تمد سيطرتها على أوكرانيا منذ بداية القرن الرابع عشر ، ومنحت السلطات الليتوانية الجماعات اليهودية امتيازات كثيرة فى الأراضى الخاضعة لها .

ظهرت مدينة موسكو عند منتصف القرن الثانى عشر كقرية صغيرة سرعان ما تحولت إلى مدينة كبيرة ثم إلى عاصمة لأهم إمارة روسية ناشئة . وبدأ أمراء موسكو حروبهم لتحرير البلاد من سيطرة التتر ، وجاءت النقطة الفاصلة عندما امتنع إيفان الثالث عن دفع الجزية إليهم فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر . كما تمكن من توسيع رقعة

مملكته شرقاً فى آسيا وشمالا فى أوروبا ، وفى محاولة منه لتدعيم مركزه تزوج أمير موسكو من ابنة الحاكم البيزنطى ووضع تاجا على رأسه كما جلس على كرسى العرش تشبيها بملوك أوروبا واتخذ لقب قيصر ، وكان إيڤان هو الذى وضع نظام الإدارة الروسى الذى استمر العمل به حتى انهيار القيصرية فى روسيا .

إلا أن روسيا بعد تخلصها من التتر وجدت نفسها أمام عدو جديد فى الغرب هو پولندا التى كانت أكثر تفوقاً من الناحية العسكرية ، وسرعان ما سقطت روسيا تحت سيطرة پولندا التى أصبحت أهم قوة سياسية شرقى أوروپا فى ذلك الوقت . ودخل الجيش الپولندى مدينة موسكو ، وكادت روسيا تتحول إلى مقاطعة من الإمبراطورية الپولندية كانت پولندا تتبع الكنيسة الكاثوليكية بينما تبعت روسيا المذهب الأرثوذكسى . وتمكن تجمع الجيش الوطنى الروسى من تحرير موسكو عندما حاصر القيادة الپولندية فى قصر الكرملين ، وقامت الجمعية الوطنية باختيار القيصر الجديد . ووقع اختيار الجميع على ميخائيل رومانوف ليجلس على عرش روسيا . ثم قام آل رومانوف بطرد القوات الپولندية التى كانت ما تزال تسيطر على منطقة أوكرانيا الواقعة بين موسكو والبحر الأسود . وظلوا يحكمون روسيا القيصرية بعد ذلك إلى أن أطاحت بهم الثورة البلشفية عام ١٩١٧ .

وكانت پولندا تمتاز عن جاراتها بأنها تطل على بحر البلطيق فى الشمال . وإن كانت محصورة بين روسيا فى الشرق وبروسيا (المانيا) فى الغرب مما جعلها فى صراع دائم بين جارتيها اللتين كانتا تسعيان إلى الاستيلاء على الأراضى الپولندية فى الشمال للوصول إلى مياه البلطيق . وجاء توحيد الأقوام الپولندية عام ١٠٦٦ – بعد فترة قصيرة من ظهور الإمارات الروسية – عندما اعتنق الپولنديون المسيحية الكاثوليكية ، وأصبحت البلاد على شكل إمارة سرعان ما تحولت إلى مملكة قوية . وتنتمى الأقوام الپولندية إلى قبائل السلاف الغربيين ، وأصبح اليهود الذين هاجروا إلى پولندا – وكانوا أتوا من بلاد القوقاز بعد سقوط مملكة الخزر – يشكلون أكبر الأقليات ، ووصلت نسبتهم إلى ٩ فى المئة من السكان .

وتعرضت وحدة الأراضى الپولندية لخطر التفكك ، وفى عام ١١٣٨ انهارت السلطة الملكية المركزية وانقسمت البلاد إلى إمارات إقطاعية مما أدى الى إضعافها ، وسرعان ما سقطت المناطق الغربية تحت سيطرة بروسيا – أصبحت الآن تعرف باسم المانيا – التى مدت سيطرتها على الجزء المطل على بحر البلطيق ، لكن الوحدة عادت إلى پولندا خلال القرن الرابع عشر ، تحت حكم الملك كاسيمير فبدأت مرحلة من السلام والبناء نفذت فيها المشروعات العمرانية الكثيرة . وازدادت قوة پولندا عندما

تزوجت حفيدة الملك كاسيمير - وكانت أصبحت الوريثة الوحيدة للعرش - من جاجيللو دوق ليتوانيا ، الذى جلس على عرش الدولة البولندية الليتوانية الموحدة وأصبحت المملكة البولندية الجديدة تمثل قوة حربية كبيرة ، وصارت تطمع فى توسيع رقعتها ، وسرعان ما تم استرداد أراضى البلطيق من يد البروسيين ، بل باتت تسيطر على أجزاء كبيرة من أراضى روسيا وأوكرانيا . وفى تلك الفترة شاهدت بولندا مظاهر الحركة الثقافية والفنية لعصر النهضة بعد فترة قصيرة من بزوغها فى إيطاليا ، واتجه المجتمع إلى محاولات الإصلاح .

وتحول نظام الحكم فى بولندا إلى الملكية المنتخبة منذ نهاية القرن السادس عشر ، وأصبح اختيار الملك يتم بالانتخاب وليس بالوراثة ، وتلى هذا قيام الملوك بمحاولة ثانية للسيطرة على روسيا عندما قرر البولنديون فرض الكاثوليكية على روسيا ، واحتلوا موسكو عام ١٦١٠ وكانت أقوام القوزاق التى استقرت في وادى النيبر فى صراع مستمر مع كل من بولندا والدولة العثمانية وقام القوزاق فى عام ١٦٤٨ بقيادة بوغدان خميلينيسكى بثورة عارمة ضد البولنديين وتمكنوا من طردهم من أوكرانيا ثم تبعوهم إلى الأرض البولندية نفسها ، وسقط الآلاف من البولنديين واليهود قتلى فى هذه الحرب ، وبعد أن انتصر القوزاق على البولنديين وضعوا بلادهم تحت سيطرة القيصر

الروسى فاستمرت الحرب بين روسيا وبولندا وكان النصر حليف الروس هذه المرة .

وتبع فشل بولندا فى مغامراتها الجديدة دخولها الحرب على جبهتين فى الشرق مع روسيا وفى الشمال مع السويد ، وتمكن السويديون من احتلال العاصمة البولندية وارسو . وعندما انتهت هذه الحرب كانت بولندا خسرت ممتلكاتها فى روسيا وأوكرانيا ، كما عادت منطقة البلطيق إلى حكم بروسيا . ثم تحالفت بولندا مع النمسا ضد العثمانيين الأتراك الذين أصبحوا يهددون بالاستيلاء على وسط أوروبا خلال القرن السابع عشر ، وكانت بولندا هى التى وقفت إلى جانب النمسا عندما حاصر الأتراك عاصمتها ڤيينا . ووقعت بولندا بعد ذلك فريسة لظهور قوتين جديدتين تتمثلان فى كل من روسيا وبروسيا (المانيا) ، وكلاهما عملت على إضعاف بولندا وإخراجها من مجال السيطرة الأوروبية .

وانتهى الأمر فى عام ١٧٧٢ إلى تقسيم بولندا واستيلاء روسيا وبروسيا والنمسا على الأجزاء المجاورة لها من الأرضى البولندية . ومع تقسيم أراضى بولندا عند نهاية القرن الثامن عشر أصبحت غالبية يهود ليتوانيا وأوكرانيا تحت الحكم الروسى ، كما أصبح اليهود المقيمون فى المناطق

الشمالية تحت الحكم الألمانى والمقيمون فى المناطق الجنوبية تحت الحكم النمسوى . وهكذا توزع يهود پولندا الإشكناز ليصبحوا مواطنين فى أربع دول أوروبية . ومع قدوم القرن التاسع عشر ، عندما أصبحت هذه البلدان هى التى تقرر مصير السياسة الأوروبية ، وجد اليهود أنفسهم جزءاً من النظام الجديد فى الوقت الذى انتهت فيه سلطة العثمانيين .

اليهود من تحريم صورة الإنسان
إلى إباحة صور الأنبياء !

كانت الصورة التي تمثل الإنسان - أى إنسان - محرمة عند اليهود فى معظم مراحل تاريخهم الطويل إلى أن جاء عصر النهضة ، ليس فقط فى إنتاجها وإنما أيضا فى اقتنائها أو حتى مجرد مشاهدتها . واليوم أصبح اليهود ، ليس فقط المسيطرين على عاصمة فنون تمثيل الإنسان والذين قدموا تمثيلاً كل أنبياء التوراة والإنجيل على شاشة السينما ، بل صاروا - بحسب ما جاء فى إحدى المجلات البريطانية - يعملون على احتكار هذه الوظيفة وإبعاد الآخرين عن الاشتراك معهم .

نشرت مجلة « سبكتاتور » البريطانية أخيراً مقالاً طويلاً تتساءل فيه عما إذا كانت هناك مؤامرة تقوم بها عصابة يهودية سرية على منع غير اليهود من الوصول إلى مراكز السلطة فى « هوليوود » . والغريب أن رئيس تحرير المجلة الذى سمح بنشر هذا الموضوع - دومينيك لوسون ابن

نيجل لوسون وزير المال البريطاني السابق – هو نفسه يهودى . وذكر المقال أسماء ثلاثة من العمالقة الذين يسيطرون على صناعة السينما الأمريكية . مايك أوفير وستيفن سبيلبيرج وجيفرى كاتزنبيرج وكلهم من اليهود . وبحسب ماجاء في المقال فإن يهود هوليوود – وهم جماعة من العدميين متوسطى الثقافة – أقاموا سياجاً لمنع تشغيل البيض الأنجلو – ساكسون من البروتستانت ، والآخرين من غير اليهود فى هذا المجال ، حتى أصبح اليهود وحدهم يحكمون صناعة السينما .

والفن بمعناه يحتوى على كل أعمال الإنتاج الإبداعى فى الأدب والشعر والدراما والموسيقى والرقص والفنون التشكيلية ، مثل أعمال الرسوم والنحت والمعمار . وأنتج الإنسان منذ أقدم عصوره أشكالاً فنية كان يعتقد أن أرواح الأجداد تسكن فيها . ويرجع أقدم الرسومات التى تم العثور عليها داخل الكهوف بمنطقة « لاسكو » الفرنسية إلى ١٥ ألف عام قبل الميلاد ، وهى تتضمن رسومات للثيران ، وعثر على تماثيل ترجع إلى الفترة الزمنية نفسها تمثل الأنثى رمز الخصوبة ، وعلى أقنعة تستخدم فى الرقص الدرامى الذى كان يعتبر لدى الأقوام البدائية جزءاً من طقوس العبادة . وقام السومريون – الذين سكنوا جنوب أرض ما بين النهرين – بتشييد معابدهم خارج المدينة ، منذ الألف الرابع قبل الميلاد .

كان الفن ملتصقا بالاعتقادات الدينية منذ البداية عند غالبية الشعوب ، والسبب في هذا أنه يعبر عن المعانى الروحية التى قد لا تكون لها دلالات عقلانية مباشرة . ونشأ الفن التشبيهى فى البداية فى محاولة لتخليد الأجداد والأبطال القدماء – مع مرور الزمن – أصبحوا بمثابة المعبودات لأتباعهم ، ذلك أن الإنسان البدائى كان يؤمن بحلول روح الميت فى الصورة أو التمثال متى تحقق الشبه .

ووصلت الفنون إلى مرحلة النضج فى مصر القديمة فى عصر بناة الأهرامات – ٢٦ قرناً قبل العصر المسيحى – عندما وصلت فروع الفن التشكيلى الثلاثة ، الرسم والنحت والمعمار ، إلى نظام فنى متكامل . وكان الفن المصرى مرتبطاً بالاعتقادات الدينية المصرية خصوصاً ما يتعلق منها بفكرة الحياة بعد الموت . ولهذا ارتبط العمل الفنى فى مصر ببناء المقبرة وإعدادها قبل بناء المعبد ، وكان المصريون يعتقدون بأن روح الميت تحل فى تمثاله بعد موته ، ولهذا كانوا ينحتونه من الحجر الصلب ليدوم فى بقائه . ولم يهتم المصريون بتقديم صورة واقعية للإنسان ، وإنما أقاموا فنونهم على أساس من الأبعاد الحسابية والزوايا الهندسية التى كانت تشكل جوهر الاعتقاد الدينى فى مصر القديمة .

ونحن لا نعرف شيئا عن النشاط الفنى لبنى إسرائيل أثناء وجودهم فى مصر خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ولوحكمنا على ماظهر بعد

هذه الفترة لوجدنا أن الإسرائيليين الأوائل تبعوا العادات نفسها التى كانت قائمة في المجتمعات التى عاشوا فيها ، ولم تكن لهم عادات أو مظاهر فنية مختلفة سواء في مصر أو فى كنعان . ولم يكن بنو إسرائيل في بادئ الأمر يمثلون سوى قبيلة متنقلة ، وجزء من واقع اجتماعي شامل ، كنعاني بشكل عام ، وإن كان بعض الذين سمحت لهم الفرصة بالتعلم فى مصر تأثروا بمظاهر الحضارة المصرية . ونحن نعلم من البقايا الأثرية التى تم العثور عليها فى مصر ، أن الملك إخناتون - الذى كان يحكم مصر قبل فترة غير بعيدة من وقت خروج بنى إسرائيل من مصر والذى أعلن وحدانية المعبود الذى ليس له شبه - لم يمنع صنع الصور التشبيهية ولا التماثيل ، بل إن الفن التشبيهى والرمزى حقق قفزة كبيرة فى عصره أنتجت ما عرف فى ما بعد باسم « فن العمارنة » وهو أرقى أشكال الفن المصرى القديم ، والنموذج الذى احتذاه فنانو عصر النهضة فى أوروبا فى ما بعد .

والسبب الذى جعل الكهنة يحرمون صنع صور الشبه هوتفسيرهم للنص الذى جاء فى سفر الخروج - ثانى كتب التوراة - بالإصحاح العشرين « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض » (الإصحاح ٢٠ الآية ٤) .

كما ورد فى سفر التثنية « لاتصنع لك تمثالا منحوتا وصورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من أسفل وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن » (الإصحاح ٥ الآيتان ٨و٩) وكذلك « لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم بهيمة ما مما على الأرض شبه طير ما ذى جناح مما يطير فى السماء شبه دبيب ما على الأرض شبه سمك مما فى الماء تحت الأرض . ولئلا .. تسجد لها وتعبدها » (الإصحاح الرابع الآيات ١٦ - ١٩) .

ومع أن التوراة - كما هو واضح من النصوص السابقة - تحرم صناعة الأشباه بقصد عبادتها ، إلا أن الكهنة قالوا بتحريم صناعة صور الشبه بشكل عام .والسبب فى هذا التحريم القاطع ، ليس فقط أن بنى إسرائيل ظلوا ثمانية قرون من تاريخهم يعبدون الأصنام ، بعد ارتدادهم عن الديانة الموسوية ، بل كذلك لأن الشعوب التى كانت تحيط بهم عندئذ كانت تقيم هذه الأشكال أساسا بقصد عبادتها . فلم يكن القدماء يقيمون رسماً أو تمثالاً للبشر العاديين وإنما للملوك المقدسة والمعبودات ، فخشى الكهنة أن تؤدى هذه الفنون إلى ارتداد اليهود مرة ثانية . بل إن جوهر صراع اليهود ضد السلطة الرومانية كان يتمثل فى رفضهم لصور الأشباه المصنوعة للأباطرة والمعبودات الرومانية . واستمر منع تشبيه الجسد الإنسانى بأى شكل فى أيام حكم كهنة معبد القدس ، وإن كان هذا المنع ازداد فى ما

يتعلق بأشكال النحت المجسدة عنه فى الأشكال المرسومة ، واستمرت الحال هكذا فى ظل العصرين الإغريقى والرومانى ، وحتى فى خلال فترة الحكم البيزنطى ، ثم الإسلامى . وعندما أظهر اليهود اهتماماً بفنون الزخرفة ، استمروا فى تحاشى الأعمال التى تحاكى شكل الإنسان أو الحيوان .

وكانت بداية ظهور فن مسيحى خاص له علامات مميزة فى مصر ، فى العصر اليونانى ــ الرومانى ، ومنها انتقل إلى روما ثم القسطنطينية . بل إن أول شكل للصليب المسيحى كان « عنخ » مفتاح الحياة عند المصريين القدماء . وأحدث انتشار المسيحية تغييراً أساسياً فى موضوعات الفنون التشكيلية ، فبعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية عام ٣١٢ وأصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، تغير شكل الفن وطراز المعمار فى دولة الرومان . ولم تعد روما مركزاً للنشاط الفنى الذى انتقل إلى القسطنطينية منذ منتصف القرن السادس ومع جلوس جستينيان على العرش (٥٢٧–٥٦٥) بدأت ملامح الفن البيزنطى الجديد تظهر فى أعمال الفنانين ، مختلفة تماماً عن الفن الرومانى . وكما يبدو من الشكل الموزاييكى الذى ظهر فيه الإمبراطور وحاشيته ، فإن الفنان حرص على عدم تقديمهم على أنهم أجساد بشرية بل ككائنات روحية ، واختفت الأجساد تحت غطاء رمزى من القماش ،

تحيط بها أرضية ذهبية اللون . وكان من أهم مظاهر هذا الفن محاولة الفنانين إخفـاء الطبيعة الجسـدية للإنسان ، وقدموه وكأنه كائن روحى من الملائكة .

وحدث انقسام فى موقف اليهود خلال القرون الوسطى ، فبينما استمر البعض فى تحريم الأعمال الفنية التشبيهية ، قبل البعض الآخر التعبيرات الفنية على أنواعها . وظهر فنانون من اليهود أنفسهم . ففى شمال أوروبا قام اليهود بأعمال فنية تشبيهية ، وأباح افرايم بن إسحق حبر مدينة ريجنسبيرج الألمانية رسم الحيوانات والطيور على جدران المنازل ، بل إن بعض الأحبار لم يمانع فى رسم صور تمثل مشاهد من قصص التوراة على جدران المنازل ، مثل صورة الصراع بين داود وجالوت . وفى فرنسا أباح رجال الدين اليهود حتى تماثيل الشبه ، على ألا تكون كاملة .

وبدأ عصر النهضة فى فلورانسا الإيطالية منذ القرن الرابع عشر ليفتح الطريق لظهور عمالقة فى الفن التشكيلى حاولوا تصوير الإنسان وعالمه ، وأنزلوا شخصياتهم من وسط السحاب إلى واقع الحياة الأرضية . ولهذا اهتم المثالون والفنانون الإيطاليون بدراسة علم التشريح والأبعاد الحقيقية والظل والألوان . وكان يهود إيطاليا أول من تأثر بحركة النهضة وشاركوا فى كل أنواع النشاط الفنى ، حتى صار منهم أعضاء فـى طائفة

الرسامين . وفى القرن الثامن عشر بدأ الفنانون اليهود يبرزون فى العديد من المدن الأوروبية ، وظهر عدد من الفنانين النابغين من بينهم . وأصبح مـن الممكن بالنسبة إلـى اليهود التعامل مع الفن التشبيهى بجميع صوره . حتى إن الفنانين اليهود أنفسهم بدءوا فى إنتاج أعمـال فنية تمثل الأحداث التى وردت فى القصص التوراتية وتصور شخصياتها . وهكذا جاء التطور الطبيعي للنشاط الفنى لدى اليهود متأخراً ولـم ينطلق إلا فى المرحلة الكلاسيكية المتأخرة للفن الأوروبى .

وعندما ظهرت فنون الشبه التشكيلية التى تعبر عن الإنسان وعالمه – وليس عن المعبودات وعوالمها – لم يجد أحبار اليهود مبرراً لتحريم الأعمال التشبيهية . وكان الحظر الذى ورد فى التوراة ينحصر فى تحريم الأشكال التى تصنع بقصد السجود لها وعبادتها ، ولم يعد الناس يعبدون الأصنام فـى زمـاننا هـذا . حتى صور الأنبياء والقديسين أصبـح مسموحا بصنعها الآن ، فـى عصر سيطر فيه اليهود علـى أعمـال الشبه فـى العالـم الغربى بأكمله .

انهيار سيطرة احبار التلمود امام

الدعاة الحسيديم المجددين

مرت يهودية الأحبار بأزمة كبيرة خلال القرن الثامن عشر كادت تقضى على وجود اليهودية كديانة مستقلة ، وتؤدى إلى اعتناق اليهود الجماعى للإسلام أو المسيحية ، فمنذ دمار القدس ومعبدها عام ٧٠ ميلادية كان الأحبار هم القيادة الرئيسية المنتشرة فى أنحاء العالم ، يدرسونهم التلمود ، وهو كتاب يحتوى على أقوال موسى التى وصلتهم شفاهة . وكانت الاعتقادات اليهودية تقوم على الالتزام بحرفية النصوص وتحرم إعمال الفكر فى تفسيرها ، فلما سقطت الدولة الإسلامية فى الأندلس وطرد اليهود من إسپانيا والبرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر ، انتشر فكر القبالة التصوفى مع المهاجرين إلى المغرب وإيطاليا وبلاد الشام والأناضول ، فكان له كبير الأثر فى تغيير الفكر اليهودى التلمودى فى ما بعد . وعلى اعتقادات القبالة اعتمد شابتاى زيفى وأنصاره فى إعلان حركة الخلاص الشباتية التى بدأت خلال القرن السابع عشر فى الدولة

العثمانية . وعندما انتهى الأمر بمسيح اليهود - الذى قبله معظم يهود العالم وبشر غالبية الأحبار بأنه مسيحهم الذى جاء لينصرهم على أعدائهم ويقيم مملكة إسرائيل من جديد ، هذه المرة لتحكم العالم بأجمعه - باعتناق الإسلام على يد السلطان العثمانى محمد الرابع عام ١٦٦٦ ، كانت صدمة قاسية بالنسبة إلى الطوائف اليهودية كلها مما أدى إلى إضعاف مركز أحبار التلمود بشكل خاص . فهم الذين يتولون القيادة الدينية لليهود وهم الذين بشروا بقدوم « مسيحهم » وهم الذين باركوا شابتاى زيفى على أنه هو المخلص المنتظر الذى توقعوا مجيئه فى العام نفسه ، ثم تحول إلى الإسلام . وتبع ذلك اعتناق آلاف اليهود للدين الإسلامى على أنه دين الخلاص .

وجاء اعتناق « مسيح اليهود » للإسلام بمثابة اعتراف ضمنى بأن يسوع هو مسيح اليهود . فالدين الإسلامى يتضمن الاعتقادات التوحيدية الموسوية إلى جانب قبول عيسى (يسوع) على أنه مسيح بنى إسرائيل . وكان هناك الكثيرون من اليهود فى القرن السابع الذين فكروا فى اتباع رسول الإسلام لولا أنه قبل أن يسوع هو المسيح . فكان اعتناق زيفى للإسلام اعترافاً منه بأن يسوع هو مسيح اليهود ، ولا داعى لانتظار مسيح آخر . وعلى هذا فبعد موت زيفى ظهر تلميذه يعقوب فرانك فى بولندا - الذى أسس جماعة الفرانكيين - ليقود انشقاقاً خطيراً داخل الجماعة

اليهودية ضد أحبار التلمود معلناً أن التلمود يمثل الكذب والخداع ، وأن يسوع هو المسيح ، ودعا أتباعه الى قبول عمادة الكنيسة فاعتنق آلاف منهم الديانة المسيحية .

فى هذه الظروف التى أفقدت يهودية أحبار التلمود ثقة الطوائف اليهودية ، قامت حركة الحسيديم في بولندا ، وانتزعت قيادة معظم الجماعات اليهودية من أيدى الأحبار وغيرت إلى حد كبير من طبيعة الاعتقادات اليهودية . فلم يعد الحسيديم ينتظرون مجئ المسيح تاريخياً . وإنما مجيئه في آخر الأيام (يوم القيامة) . ولم يعد اليهود هم الشعب المختار وإنما الخلاص يتم للأفراد الذين يستطيعون بسبب صلاحهم وتعبدهم إدراك النور السماوى .

و « الحسيديم » هو الاسم الذى يطلق على الحركة التى ظهرت فى شرق أوروبا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وأصبحت بعد فترة وجيزة قوة رئيسية فى اليهودية الحديثة ، واستمرت سيطرتها على الكيان اليهودى إلى أن ظهرت الحركة الصهيونية التى تمكنت فى بداية القرن العشرين من فرض قيادتها علـى غالبية الجماعات اليهودية فـى العالم . وكان أول ظهور للحسيديم فى منطقة الجنوب الشرقى لمملكة بولندا - ليتوانيا قبل انفصالها فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان مركز الثقل بالنسبة إلى الوجود اليهودى انتقل إلى بولندا .

ولم تبدأ هذه الحركة التى أسسها إسرائيل بن اليعازر مثل باقى الحركات والمذاهب اليهودية بين أفراد الطبقة العليا أو بين المثقفين ، بل كان معلموها الأوائل - الذين اعتادوا الترحال - ينشرون دعوتهم بين الجماعات اليهودية الصغيرة والفقيرة ، وكان الكثيرون من معلمى الحسيديم الأوائل من أتباع زيفى ، وجاء ظهور مذهب الحسيديم كرد فعل على خيبة الأمل التى سادت بين اليهود أثر اعتناق حركة زيفى للإسلام ، وحاول الكثيرون من رجال اللاهوت اليهود الذين استمروا فى الاعتقاد بأن شابتاى هو مسيح اليهود ، حتى بعد إسلامه ، تفسير التناقض فى تخلى مسيح اليهود عن ديانته اليهودية ، فقال بعضهم بضرورة اعتناق جميع اليهود للإسلام ليقيموا تحالفاً بين اليهودية والإسلام مقابل العالم المسيحى ، بينما ذهب البعض الآخر إلى الاكتفاء بتعاليم زيفى فى المرحلة التى عاشها قبل إسلامه .

ولا شك فى أن هناك نوعاً من التقارب بين فكر الحسيديم والحركة الشباتية ، وهناك رواية أسطورية تقول إن إسرائيل بن اليعازر - معلم الحسيديم الأول - كان يحاول إنقاذ روح زيفى من الهلاك فى جهنم ، حيث رآه مستلقيا على طاولة مع يسوع ، ولكن زيفى مد يده وحاول جذبه ليسقط إليه فى عالمه .

وينقسم تاريخ الحسيديم منذ نشأتهم فى النصف الأول من القرن الثامن عشر إلى أربع مراحل :

فى المرحلة الأولى ظهرت جماعة من المعلمين الدعاة يتنقلون بين الطوائف اليهودية - بزعامة بن اليعازر - يدعون إلى نوع جديد من العبادة ، وكان هؤلاء من جماعة القبالة المتصوفة ، وكان رئيسهم يستخدم طرق السحر والتعاويذ ، آمن هو وأتباعه بأن لديه قوى خارقة ومقدره على رؤية المجهول . وقامت دعوة بن اليعازر على ضرورة إطلاق سراح الفرد فى تعبده من سلطة الأحبار وتفسيراتهم التلمودية ، حتى يتمكن من الاتصال بالرب مباشرة من دون وساطة رجل الدين . وفى المرحلة الثانية (١٧٦٠ - ١٧٧٢) بعد موت بن اليعازر ، انتقلت زعامة الحركة الحسيدية إلى تلميذه دوف بير الذى كان يعقد اجتماعات لأنصاره فى منزله ويخطب فيهم واعظاً . وفى هذه الفترة تمكن الحسيديم من تنظيم أنفسهم تحت قيادة قوية . وانتشرت حركة الحسيديم فى كل مناطق پولندا وبلاروسيا وليتوانيا ، وعندما وقعت منطقة جاليسيا تحت سلطة النمسا ، انتشر الحسيديم فى بلاد المجر كذلك .

وجاءت الفترة الحاسمة فى تطور حركة الحسيديم بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر عندما أصبح الحسيديم قوة مهمة

داخل الكيان اليهودى وانتشرت جمعيات الحسيديم التى أصبحت تضم عشرات الألوف من الأعضاء ، وحلت محل التنظيمات الدينية الرسمية لليهود وخرجت عن سلطة الأحبار ، على رغم ظهور معارضة منظمة تتهم الحسيديم بالهرطقة والخروج على أصول الديانة اليهودية .

أما فى المرحلة الرابعة – وهى مستمرة حتى الآن – فقد ازداد انتشار الحركة وأصبحت قيادتها وراثية ، يرثها الابن أو ابن البنت عن الأب وبلغت أوج اتساعها فى منتصف القرن التاسع عشر ، وتحولت من جماعة منبوذة من قبل الأحبار الذين اعتبروها خارجة على الاعتقاد اليهودى الصحيح حتى أصبحت مسيطرة على غالبية الجماعات اليهودية فى روسيا وشرق أوروبا وعندما بدأت موجة الهجرة إلى الغرب منذ ١٨٨١ انتشر الحسيديم فى الدول الغربية خصوصاً فى الولايات المتحدة الأميركية ، وفى هذه المرحلة حصل الحسيديم على اعتراف بحركتهم ، سواء من جانب باقى الطوائف اليهودية أو من السلطات الرسمية فى البلدان التى انتشروا فيها ، وصار من حقهم تعيين حاخامات خاصين بطائفتهم .

وتتضح اعتقادات الحسيديم خصوصاً فى طريقة سلوكهم وعبادتهم ، إذ يقوم المعلمون الدعاة بالخطابة والوعظ فى مجالسهم ، ولهم طقوس خاصة تشبه طقوس « الحضرة » عند الصوفيين . وهم مثل الصوفية

ينقسمون إلى فرق لكل منها معلم له تعاليمه الخاصة به ، وإن اتفقت فى الإطار العام للجماعة . واعتمد معلمو الحسيديم على المبادئ العامة لفلسفة القبالة - كما فعلت حركة شابتاى زيفى من قبل - بعد أن أعطوها شكلاً شعبياً عن طريق روايات التجلى الروحى ، وهم يقولون بانسحاب النور المقدس بعيداً عن العالم لإفساح المجال الفضائى الذى خلق فيه العالم ، ويؤكد الحسيديم على أن الرب موجود فى كل مكان وزمان ، مما جعل الأحبار يتهمونهم بالزندقة حيث إن الفكر التلمودى يقول بانفصال الرب عن العالم .

وحسب اعتقاد الحسيديم فإن العالم لايستطيع أن يستوعب القوة الكاملة للنور المقدس . وقالوا إن خلاص اليهود لا يمثل ظاهرة جماعية تتحقق للطائفة بأكملها وإنما يتحقق خلاص الأفراد عندما يسمو الفرد بروحه فيصير على مقدرة من الاتصال بالقوى الملائكية . ونجد أن الحسيديم - بخلاف الأحبار - يؤكدون على أهمية اتصال الفرد بربه مباشرة عن طريق العبادة ، بدلاً من الاعتقاد بأنها عملية جماعية تتعلق باليهود بشكل عام ، أو بانتظار تدخل الرب لحماية « الشعب المختار » . فالخلاص عندهم هو خلاص للفرد نفسه وليس لكل الشعب اليهودى ، وهو يتوقف على ما يقوم به هذا الفرد - حتى فى سلوكه أثناء العمل وسلوكه الاجتماعى - وليس له علاقة لا بالشعب اليهودى ولا بالتغييرات

القدرية . وبينما يؤكد الحسيديم على ضرورة اتصال الإنسان بربه مباشرة عن طريق العبادة ، فهم تخلوا عن طريقة العبادة اليهودية الربانية التى تقوم على قراءة التلمود وتفهم معانيه ، مما جعلهم يصبحون أكثر انتشاراً بين الفئات الشعبية . ويضرب الحسيديم مثلاً بقصة أسطورية عن ملك جبار يجلس على عرشه فى وسط القصر ، تحيط به قاعات مليئة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وعندما يدخل رعايا هذا الملك إلى القصر فإن غالبيتهم تظل مشغولة داخل هذه القاعات المليئة بالكنوز تحاول جمع أكثر ما تستطيع من كنوزها ، ولكن الحكماء من الرعايا هم الذين بإمكانهم مقاومة إغراء كنوز القاعات فيصلون إلى مجلس الملك ويشاهدون نوره فوق عرشه .

وبالطبع فإن جذور هذه الاعتقادات التصوفية جاءت من فلسفة القبالة التى ظهرت خلال القرن الثالث عشر بين يهود الأندلس بتأثير المدرسة الصوفية وتعنى كلمة « قبالة » – التى صارت تطلق على الحركة الصوفية فى اليهودية – الاستقبال فى اللغة العبرية . وتمثل محاولة صوفية للتعرف على الرب ، تعتمد على تفسير العلاقات الروحانية عن طريق الرموز ودلالة الأسماء الحسنى . ومن الواضح أن فكر القبالة يعتمد على الفكر الأفلاطونى الحديث الذى انتشر فى الإسكندرية خلال القرون الأولى للمسيحية – وكان أتباعه يعرفون باسم « العارفين » (Gnostics)

فـي المصـادر القـديمة – وكـان فـيلو جـودايوس وأفلوطين مـن أهـم المعبرين عنه . وعلـى رغـم تحريم أحبـار التلمود إعمال الفكر واللجوء إلـى المنطق والفلسفة لتفسير التوراة ، إلا أن فكـر العارفين عاد إلى الظهور فـي ظل مجتمع الأنـدلس المتفتح للثقافة ، وكان له أثـر كبير في ظهـور المذاهب اليـهـودية الجـديدة من ذلك التـاريخ . ومن أهم الأعمال التـى ورد فيهـا تفسير لفكر القبالة مـا قام به يعقوب بن هاكوهين وأخوه إسحق في الأندلس ، والمعروف باسم « زوهار » ويقوم فكر القبالة على محاولة التعرف على الطبيعة الإلهية عن طريق العبادة والتأمل . واتهم خصوم الحسيديم الحركة بالتخلى عن الاعتقادات اليهـودية التقليـدية والتأثر بطرق السلوك فـى العالم الغـربى والاقتـراب من الاعتقـادات الروحانية . فالفـارق الأساسي بين اليهود الأرثوذكس – الذين يقولون بالرأى المستقيم – وبين الفكر المسيحى ، هو رفضهم قبول وجود كائنات ملائكية فى العالم الربانى . حتى الشيطان – الذى يمثل ملاك الشر فى الاعتقـادات المسيحية والإسلاميـة – لا وجود له فى الاعتقادات اليهودية الأرثوذكسية ، ذلك أنهم يعتقدون بأن وجود عالم الملائكة لا يتناسب مع وحدانية الرب . وكان هذا هو السبب الجوهرى لرفض الكهنة اليـهود لرسالـة يسـوع المسيح ، الذى – لم يأت بفكرة ملكوت الرب فحسب – بل قال بوجود الروح الإلهى فى كل إنسـان ،

حيث نفخ الرب من روحه في آدم أول خلقه من البشر .

وكان لانهيار سلطة الكهنة والتلمود أثر خطير في الاعتقادات اليهودية ، ولا شك في أن فكر الحسيديم جعلهم أقرب إلى الاعتقادات المسيحية منهم إلى أحبار التلمود . وظهر على الأفق في منتصف القرن التاسع عشر أن الديانة اليهودية توشك أن تذوب وتتلاشى داخل الكيانات المسيحية والإسلامية السائدة في العالم ، فإذا لم يكن اليهود شعباً مختاراً ، فما الداعي للعزلة عن باقي البشر ؟ وكان هذا هو الوقت الذى ظهرت فيه الحركة الصهيونية لإنقاذ الموقف عندما أصبحت فكرة الشعب المختار وحدها هي جوهر اعتقاد الحركة الجديدة .

مبادئ الثورة الفرنسية تهدد
بإذابة اليهود فى المجتمع

لا شك فى أن الحضارة الغربية الحديثة التى تقوم على أساس من الحرية الاجتماعية وحق الأفراد في الاختيار ، جاءت نتيجة لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر . فهى التى حررت الإنسان الفرد من تحكم الجماعة . وقبل الثورة الفرنسية كانت المجتمعات تتشكل من طبقات وطوائف مغلقة ، لايسمح لأحد بالخروج منها ، وحتى الوظائف كانت شبه وراثية . كما كانت الكنيسة تتحكم فى سلوك جميع الطوائف . وشهدت فرنسا تغييرات أساسية فى شكل المجتمع ونظامه السياسى منذ قيام الثورة فى ١٧٨٩ وحتى سقوط نابليون وإمبراطوريته فى ١٨١٥ .

وعلى رغم وجود عدد قليل من اليهود فى فرنسا عندما قامت الثورة إلا أن مبادئ الثورة الفرنسية التى انتشرت إلى باقى الدول الأوروبية أولاً

مع الجيوش الفرنسية المحيطة بفرنسا ، وبعد ذلك عن طريق انتشار الثقافة والفكر الفرنسيين بلغت معظم البلدان الأوروبية والولايات الأميركية ، وهددت بالقضاء التام على عزلة اليهود ، وتحويل اليهودية إلى مجرد ديانة . ونحن نعرف أنه منذ بداية انتشار اليهود في دول الإمبراطورية الرومانية ، كانوا يتجمعون داخل طائفة مغلقة ولا يختلطون مع باقى أفراد المجتمع إلا أثناء العمل ، فلا تزاوج بين اليهود وغيرهم من الأفراد ، ولا معاشرة اجتماعية ولا طعام مشترك.

ويكون ولاؤهم الأول - بحسب إيمانهم الخاص - ليس للسلطة السياسية التى يخضعون لها وإنما لسلطة كهنة المعبد فى أورشليم وكانوا يجمعون الأموال سنوياً لإرسالها إلى الكهنة . وبعد انهيار المعبد عام ٧٠ ميلادية واختفاء طبقة الكهنة بأجمعها إذ قتلهم الرومان ، ظهر فقهاء الأحبار كقيادة دينية جديدة لليهود . واستمر الأحبار - الذين اعتمدوا فى عبادتهم على التفسيرات التلمودية - فى الاعتقاد بضرورة عزلة اليهود فى طوائفهم وعدم اختلاطهم مع الآخرين . وسرعان ما حصل الأحبار على موافقة الحكومات المختلفة بجعل الفصل فى المسائل الخاصة بالطوائف اليهودية فى يد الأحبار أنفسهم فهم المسئولون أمام الدولة عن سلوك أفراد طائفتهم ، وهم الذين يقومون بجمع الضرائب المقررة على الطائفة وتسليمها إلى خزانة الحكومة ، وهم الذين يجلسون للقضاء فى

الخلافات الناشئة بين أفراد طائفتهم ، وهم الذين يقررون توقيع العقاب على أى فرد من أفراد الطائفة إذا خرج عن الالتزام بتعاليمهم .

والسبب الذى جعل الأحبار يفرضون هذه العزلة الاجتماعية على أفراد طوائفهم هو أن جوهر الديانة اليهودية الربانية التى كانوا يدعون إليها يقتضى هذه العزلة . فاليهود هم الشعب المختار الذين ينتظرون مخلصهم ليقوم بإعادة بناء معبد أورشليم ، وهو الذى سيجمعهم فى أمة واحدة تحت قيادته ، ويحكم العالم .

وحتى عندما أصبحت الغالبية العظمى من يهود العالم من الإشكناز الذين لا ينتمون إلى سلالة بنى إسرائيل ، أصر الأحبار على فكرة الشعب المختار هذه وكان ظهور شابتاى زيفى فى عاصمة الدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر – الذى بشر غالبية الأحبار بقدومه عام ١٦٦٦ على أنه مسيح اليهود المنتظر – وبدلاً من أن يسافر إلى القدس لبناء المعبد وتجميع طوائف اليهود لحكم العالم .. اعتنق – هو نفسه – الإسلام ودعا طوائف اليهود إلى سلوك الطريق نفسها . ثم جاءت حركة الحسيديم لتنكر طبيعة الخلاص الجماعى ، وتقول بضرورة تحرر أفراد اليهود فى عبادتهم من قيود الأحبار والتلمود ، حيث فى إمكان أى فرد التعبد إلى الرب مباشرة . ومع هذا – وعلى رغم استعداد الحسيديم للتقارب مع

المجتمعات التى يعيشون بها - إلا أنهم استمروا فى الحياة داخل طائفة مغلقة . أما الثورة الفرنسية فقد حررت الأفراد من سلطة الطوائف ، وأصبح جميع المواطنين - بمـن فيهم اليهـود - يخضعون لقانون واحد ومحكمة واحدة ، وأصبح من حق المواطنين الانتقـال إلى أى مكان للمعيشة والقيام بأى عمل يرغبون فيه . وبينما رحب الأفراد اليهود بهذه التغيرات فى حياتهم ، اعتبرها الأحبار رؤساء الطوائف خطرة على الكيان اليهودى . ذلك أن النظام الجديد قضى على سلطتهم الخاصة فى التحكم فى سلوك أفراد اليهود . وبالطبع فإن العبادة اليهودية لـم تتأثر بالنظام الجديد ، ولكن فكرة العزلة عن المجتمع انهارت تماماً بسببه .

كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير فى الفكر الأوروبى المعاصر ، وكانت فرنسا مركز الفكر التنويرى الذى اعتمد على نتائج التجارب العلمية فى إنجلترا والمانيا ، وكان يهدف إلى تحرير الفرد من سلطة الأوهام والكنيسة والحكومة والطوائف . وأدى انتشار التعليم - على أثر ظهور المطابع منذ القرن الخامس عشر - وازدهار الثقافة بتأثير مدارس عصر النهضة فى إيطاليا فى الوقت ذاته إلى تطور فى حقل المعرفة العلمية أدى بدوره إلى ظهور الفلسفة الأوروبية الحديثة ، ونادت الحركة الجديدة برفض الاعتماد على الأساطير والروايات الخرافية والاعتماد على الحواس والتجربة لبناء المعرفة التى يقبلها العقل . وانتشرت اللغة والثقافة الفرنسية

خلال القرن الثامن عشر - وحتى الموضة الفرنسية - بين الطبقات الغنية والمتعلمة فى كل أنحاء أوروبا . كما انتشرت حركة التنوير من فرنسا إلى باقى الدول الأوروبية خصوصاً المانيا وإنجلترا والولايات الأميركية .

كانت الطائفة اليهودية فى فرنسا تتكون من جماعتين منفصلتين : السفارديم الذين هاجروا إلى البلاد بعد طردهم من إسبانيا خلال القرن الخامس عشر - وبلغ عددهم حوالى ٣٥٠٠ - وسكنوا المناطق القريبة من الحدود الإسبانية فى مقاطعة بوردو بجنوب غربى فرنسا . أما الجماعة الثانية فهى من الإشكناز الذين قدموا من شرق أوروبا وبلغ عددهم حوالى ثلاثين ألف ، وسكنوا المناطق الفرنسية الشرقية . وعمل السفارديم فى التجارة الخارجية وتمكنوا من تكوين طائفة حرفية تجارية ، فجمعوا المال فى فرنسا إلى جانب الثقافة التى أتوا بها من الأندلس ، مما جعلهم مقبولين بشكل عام كجزء من المجتمع البرجوازى الفرنسى . أما الإشكناز فى الشرق فكان معظمهم دخل الأراضى الفرنسية متسللا من دون تصريح ، وهم يتكلمون لغة اليبديش - التى هى خليط من العبرية واللغات الجرمانية - ولا يتبعون السلوك الفرنسى ، يعيشون فى جماعة مغلقة تخضع لتعليمات صارمة من الأحبار الذين كانت لهم سلطة توقيع العقوبة على أى مخالفة لتعاليمهم . وكان معظم الإشكناز يتعامل فى تجارة المواشى وأعمال الربا ، مما جعلهم مكروهين

من فقراء الفلاحين الفرنسيين فى المنطقة .

وأصبحت المشكلة اليهودية موضوع اهتمام رجال الفكر في فرنسا منذ ١٧٧٠ ، عندما بدأ المفكرون الإصلاحيون فى مهاجمة الاعتقادات الكنسية ، خصوصاً التعصب الدينى ، ونادوا بضرورة تسامح المجتمع وقبول المخالفين فى الفكر والاعتقاد ، فأصبح اليهود متهمين بأن كتبهم وسلوكهم تقوم على أساس من التعصب الدينى إلا أنهم صاروا في الوقت نفسه محل عطف عليهم بسبب اضطهاد محاكم التفتيش الكنسية لهم . وبينما ذهب ڤولتير – وهو من أعلام حركة التنوير فى فرنسا – إلى أن لليهود طبيعة متعصبة خاصة بهم متأصلة في شخصيتهم ولا يمكن تغييرها ، قال آخرون إن سبب النواقص في سلوك اليهود يرجع إلى طريقة المعاملة السيئة التى يلاقونها فى المجتمع الذى تركهم فى عزلة اجتماعية تحت رحمة رؤسائهم الذين يفرضون عليهم اتباع تقاليدهم العتيقة ، أما إذا حصلوا على حقوق المساواة الاجتماعية وقبلهم المجتمع كمواطنين ، فإن سلوكهم سوف يتحسن تلقائيا .

وكان لويس السادس عشر نفسه راغبا فى تحقيق الإصلاحات الضرورية التى يتطلبها العصر ، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء والقدرة على حسم الأمور بحزم ، فى وقت كانت فيه فرنسا تمر بمرحلة صعبة من

تاريخها . وبينما كان لويس يسعى إلى توسيع سلطاته حتى يتمكن من تحقيق المشروع الإصلاحي الذى عزم عليه ، كان النبلاء وحكام المقاطعات يعملون على تحديد سلطات الملك وزيادة امتيازاتهم الخاصة . وجاء اشتراك فرنسا إلى جانب الثوار الأميركيين ضد الاحتلال البريطاني ليستنزف الموازنة الفرنسية ويؤدى إلى إضعاف قدرة لويس على الإصلاح . كما صاحب الاستنزاف الحربى للموارد المالية زيادة كبيرة فى عدد السكان - بلغت نسبتها ٢٥ فى المئة فى عهد لويس السادس عشر - لم تصاحبها زيادة فى مساحة الأرض المزروعة أو فى الإنتاج الصناعى ، مما أدى إلى انتشار الفقر المدقع بين ملايين الفلاحين الفرنسيين وفى الوقت الذى ازداد الفقراء فقراً ، ازدادت ثروات النبلاء والكنيسة ، وهى الطوائف التى رفضت دفع الضرائب أو مساعدة الحكومة فى حل المشكلة . واضطرت الحكومة إلى الاقتراض لتعويض العجز القائم فى موازنتها ، مما زاد الطين بلة ، فزادت الحكومة من حصيلة الضرائب التى تحصل عليها من عامة الشعب حتى تتمكن من سداد القروض وفوائدها ، وأصبحت فرنسا فى تلك الفترة البلد الوحيد الذى يقوم فيه الفقراء بدفع معظم الضرائب ليتم إنفاقها على الدولة والكنيسة .

وفى محاولة لإيجاد حل للمشكلة الاقتصادية ، دعا لويس جمعية النبلاء - التى يشاركهم فيها الكهنة - إلى الاجتماع لبحث إمكان زيادة

الضرائب المفروضة على الطبقات الميسورة للمساعدة فى الخروج من الأزمة . ولكن جمعية النبلاء رفضت مساعدة لويس فى حل المشكلة ، خصوصا وهو يطالبهم بتحمل التكاليف . وإزاء رفض مجلس النبلاء مناقشة المشكلة الاقتصادية لم يجد لويس بدأ من الدعوة عام ١٧٨٩ إلى اختيار أعضاء لتشكيل مجلس المقاطعات ، وتم اجتماعه فى فرساى فى الخامس من أيار (مايو) من العام نفسه . وكان هذا المجلس يتكون من ثلاث جمعيات تمثل الكهنة والنبلاء والعامة . وبدلاً من مناقشة المشكلة الاقتصادية فوجئت الحكومة بأن جمعية العامة – بتأييد من بعض الكهنة والنبلاء – قامت بإعلان نفسها جمعية وطنية وأعطت لنفسها سلطة وضع المبادئ التشريعية التى تسير عليها البلاد وكتابة الدستور . وعندما قامت السلطات بإغلاق غرفة الاجتماعات ، استمرت الجمعية الوطنية تجتمع فى ملعب التنس المجاور للقاعة ورفضت الإذعان لمناشدة لويس بالاقتصار فى أعمالها على مناقشة المشكلة الاقتصادية . وكانت باريس تعج بالعاطلين عن العمل والجائعين الذين عجزوا عن العثور حتى على رغيف الخبز ليشبعوا به جوعهم .

وفى يوم ١٤ تموز (يوليو) قامت جماعات من العامة بمهاجمة سجن الباستيل وأطلقت سراح المسجونين ، وعمت الفوضى جميع أنحاء فرنسا ولم يتمكن أحد من السيطرة على الموقف . وتشجعت الجمعية

الوطنية على أثر هـذه الأحداث فـى إصدار أهـم بيان لها والمعروف باسم « إعلان حقـوق الإنسان والمواطن » يقوم على إطلاق سراح الفرد فى تصرفاته الشخصية من سلطة الدولة والكنيسة واعتبار جميع المواطنين سواسية ، بصرف النظر عن انتمائهم العائلى أو اعتقادهم الدينى أو وضعهم المالى . كما قررت الجمعية إلغاء النظام الإقطاعى والاستيلاء على أملاك الكنيسة وقطع علاقتها بروما كما منعتها حق جمع ضريبة العشور من المواطنين ، وأصبحت خاضعة للسلطة المدنية فى تصرفاتها . وقررت الجمعية كذلك المساواة بين المواطنين فى دفع الضرائب للحكومة .

ولم يحصل اليهود على حقوق المساواة مباشرة ، فقد تم تفسير إعلان حقوق الإنسان فى البداية علي أنه لا ينطبق علي اليهود . وفى أوائل العام التالى وافقت الجمعية على منح اليهود السفارديم حق المساواة مع باقى الفرنسيين ، واستمر النظر الى الإشكناز على أنهم غرباء عن المجتمع الفرنسى . ولكن الجمعية الوطنية عادت فى أواخر أيامها عام ١٧٩١ وقررت منح الإشكناز حق المواطنة ، حتى تكون الثورة حررت جميع سكان الأراضى الفرنسية بصرف النظر عن أصلهم العرقى أو اعتقادهم الدينى ، وسرعان ما بدأت الحرب عام ١٧٩٢ بين فرنسا ومعظم الدول الأوروبية ولم تنته إلا بنهاية نابليون فى ١٨١٥ .

ومع انتشار مبادئ الثورة الفرنسية انهارت الطوائف اليهودية وأصبح اليهود مواطنين في المجتمعات الجديدة ، وخشى زعماء الطوائف من أن يؤدى هذا إلى ذوبان الإنسان اليهودى داخل مجتمعه الجديد بعد أن أصبح مواطناً فيه ، له الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها مثل باقى المواطنين ، وهنا بدأت فى روسيا القيصرية - وهى آخر المعاقل التى قاومت فكر الثورة الفرنسية - حركة يهودية جديدة باسم « حبات صهيون » تقاوم ذوبان اليهود وسط الأمم وترفع شعار العزلة من جديد ، هذه المرة على أساس سياسى .

الخلفيات الدينية والسياسية
لاتهامات التضحية بالأطفال

من الأسباب التي أدت إلى كراهية اليهود في المجتمعات الغربية منذ القرون الوسطى وحتى القرن العشرين ما أشيع من قيامهم بخطف الأطفال المسيحيين الصغار وذبحهم في ليلة عيد الفصح لاستخدام دمهم في طقوس العبادة التي يقومون بها في هذا اليوم . ويصر اليهود على إنكار هذا الاتهام الذى يفسرونه على أنه إشاعات كاذبة تعتبر شكلاً من أشكال العداء للسامية وتهدف إلى إيجاد الأعذار للتنكيل بهم . وليس هناك في التوراة ما يقول بوجوب تقديم أضحية بشرية في عيد الفصح ، وإن كان استخدام الدم في عملية التطهير المقدس ورد في مواضع عدة من العهد القديم ، ولكن دم الحيوان هو المنصوص عليه هنا .

كما تنص تعاليم التوراة على ضرورة تكفير الإنسان عما يرتكبه من خطايا عن طريق أضحية يتم ذبحها ، وتكون قيمة عملية رش الدم هي

فى تحقيق الغفران . كما أحلت التوراة - بحسب ما جاء فى قصة إبراهيم عليه السلام وابنه الذبيح - التضحية بالحيوان فداء للإنسان ، وكانت أضحية الدم عن طريق الذبح تعتبر محققة للطهارة . لكن شرب الدم أو تناوله مع اللحم كان محرماً .

كانت الأضحيات البشرية موجودة فى معظم الديانات الوثنية القديمة ، وكان الاعتقاد السائد هو أن روح الكائن الحى تكون موجودة فى دمه . فلم يكن الإنسان البدائى يعرف شيئا عن الدورة الدموية .

إلا أن الادعاء بقيام اليهود بتقديم أضحية بشرية فى عيد الفصح يسبق القرون الوسطى بل والعصر المسيحى نفسه . وحسب كلام الكاتب السكندرى ابيون الذى عاش فى بداية القرن الميلادى الأول ، فإن أنتيوخوس ابيفانز الملك السلوقى الذى كان يحكم أرض الشام خلال النصف الثانى من القرن الثانى السابق للميلاد ، عثر داخل معبد اليهود فى القدس على شخص يونانى كان الكهنة يحبسونه فى إحدى الغرف الداخلية ووجد أمامه طعاماً كثيراً على المائدة ، ولما سأله عن قصته أخبره أن الكهنة سجنوه وهم يطعمونه حتى يسمن لكى يذبحوه عند الاحتفال بعيد الفصح . وكان أنتيوخوس هاجم كهنة القدس ووضع حامية يونانية فى قلعتها وعزل الكاهن الأكبر وعين كاهناً آخر مكانه . ويقول فلافيوس يوسيفوس - المؤرخ اليهودى الذى عاش خلال القرن الأول للميلاد -

إن رواية أبيون السكندرى ماهى إلا إشاعة مغرضة لتبرير تدنيس الملك السلوقى لمعبد اليهود ، وليس لها أساس من الصحة .

ومع دمار معبد القدس اختفت الاتهامات الموجهة إلى اليهود ولم نسمع بعد ذلك عن تكرارها هذا خلال الأحد عشر قرناً الأولى للمسيحية . وفى القرون الوسطى عادت الروايات والقصص تظهر من جديد - هذه المرة فى أوروبا الغربية - حول فكرة الأضحية البشرية لدى اليهود وطقوس الدم الإنسانى فى عيد الفصح . وانتشرت خلال القرون الوسطى حالات اتهام المسيحيين لليهود بارتكاب أضحيات الدم البشرية ، وجاء أول هذه الاتهامات عام ١١٤٤ فى مدينة نوريتش الإنجليزية عندما قيل إن اليهود اختطفوا طفلاً مسيحيا وقتلوه بعد تعذيبه . ثم تبع هذا فى القرن التالى اتهام اليهود بقتل طفل مسيحى آخر فى مدينة لينكولن فى إنجلترا أيضا ، وأشار الأديب الإنجليزى جوفرى شوسر إلى هذه الحادثة ضمن « حكايات كانتربرى » حيث ذكر قصة صبى مسيحى يتيم الأب كان يسير فى منطقة سكن اليهود وهو يرتل أغنية كنسية ، فأمسك به اليهود وقتلوه .

وبعد هذا عمت الاتهامات الموجهة لليهود فى معظم البلدان الأوروبية ، وقيل فى ميونيخ إن اليهود شربوا دم الأطفال المسيحيين بعد ذبحهم .

وكانت غالبية الحكام الأوروبيين ورجال الكنيسة تعارض انتشار هذه الشائعات . ورغبة منه فى وضع حد لهذه الأقاويل قام الإمبراطور فريدريك الثانى عام ١٢٣٥ بعمل تحقيق لمعرفة حقيقة هذه الاتهامات ، وبعد أن سأل رجال الكنائس المسيحية عمد إلى سؤال بعض اليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن حقيقة هذه الشائعة إذ إنهم أقدر الناس على معرفة هذا الأمر . وجاء فى البيان الذى أذاعه الإمبراطور عند انتهاء التحقيق أنه عند سؤال رجال الكنيسة « عبروا عن آراء مختلفة عن هذه الحالة ، ولأنه تبين عدم قدرتهم على إعطاء قرار نهائى فى هذا الشأن ... وجدنا من الضرورى ... اللجوء إلى بعض الناس الذين كانوا يهوداً من قبل ثم اعتنقوا الديانه المسيحية ، فهم بصفتهم معارضين ، لن يسكتوا عن أى شئ يعرفونه فى هذا الأمر ضد اليهود » . وجاءت نتيجة هذه التحقيقات لتنفى عن اليهود تهمة قتل الأطفال المسيحيين ، وأيد إنوسينت الرابع بابا روما هذه النتيجة . ومع هذا ظلت الجماهير على اعتقادها بارتكاب اليهود لهذه الجرائم . وكان رد اليهود أنها تهمة كاذبة إذ لا يوجد فى التوراة ما يتطلب ذبح البشر ، واتهموا بدورهم المجتمعات المسيحية بإطلاق هذه التهمة الكاذبة ضدهم حتى يجدوا مبرراً لقتل اليهود .

واستمرت الاتهامات توجه لليهود بتعذيب الأطفال المسيحيين وقتلهم فى ذكرى موت المسيح فى عيد الفصح خلال القرنين الثانى عشر والثالث

عشر ، فى جلوستر بانجلترا وبلواز بفرنسا وساراغوزا بإسبانيا . وفى عشية طرد اليهود من إسبانيا أثير الاتهام المعروف باسم « طفل لاغوراديا المقدس » فى عام ١٤٩٠ ، حيث اعترف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية بأن اليهود قاموا - بمعرفة الحبر الأكبر - بالاجتماع فى كهف وقتل الطفل المسيحى ثم انتهاك حرمة الموتى بطعنه فى وجهه .

ثم ظهرت المخاوف نفسها فى أوروبا الشرقية حيث انتشرت اتهامات الأضحية البشرية ضد يهود بولندا وليتوانيا بكثرة منذ القرن السابع عشر ، وفى هذه المرة صاحبتها اتهامات بممارسة الأعمال السحرية كذلك . وأصبحت هذه التهمة أوسع انتشاراً فى روسيا القيصرية ، حيث جاءت التهمة الأولى بمدينة سينو فى شمال البلاد عام ١٧٩٩ عندما تم العثور على جثة امرأة مقتولة بالقرب من حانة لليهود . وبصفة عامة نجد أن هذه التهمة توجه بشكل خاص فى المناطق التى يسكنها اليهود الإشكناز . ومع أن الحكومة الروسية أصدرت تعليماتها عام ١٨١٧ بمنع توجيه تهمة قتل الأطفال المسيحيين إلى اليهود من دون دليل ، إلا أن القيصر الإسكندر الأول عاد - بعد سنوات قليلة من صدور هذه التعليمات - وأصدر أوامره بالتحقيق فى اتهام اليهود فى جريمة قتل مسيحى بمدينة فيليزة بشمال روسيا عندما عجزت السلطات عن معرفة القاتل . ثم قام خليفته نيقولا الأول بإلغاء هذه التعليمات معلنا أن « هناك بين

اليهود من هم متعصبون همجيون ، وفرق تتطلب دماء المسيحيين للقيام بطقوسها » .

واستمرت هذه التهم توجه إلى اليهود فى روسيا القيصرية حتى قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، فرفض الشيوعيون قبول هذا النوع من الاتهامات التى اعتبروها سلاحاً رجعياً استخدمه النظام القيصرى لاستغلال الجماهير وإرهابها . ومع ذلك ظلت الاتهامات بقتل الأطفال تظهر خلال القرن العشرين وتوجه ضد يهود الاتحاد السوفياتى فى مقاطعات چورجيا وطاچكستان وأوزبكستان .

وبالطبع كانت المجتمعات المسيحية تعاقب الطوائف اليهودية بالقتل والطرد فى كل مرة توجه إليهم تهمة الأضحية البشرية . وكان لهذه الاتهامات أثر سيئ فى حياة اليهود فى أوروبا بشكل عام . إذ تعرضوا للتعذيب والإهانة وأصبح البعض يعاملهم وكأنهم يمثلون الشيطان .

أما بالنسبة إلى المنطقة العربية فقد صدر أول اتهام لليهود بالأضحية البشرية فى دمشق عام ١٨٤٠ . ففى الخامس من شباط (فبراير) ١٨٤٠ اختفى راهب كبوشى إيطالى كان يقيم فى المدينة السورية ومعه خادمه إبراهيم عمارة ، وأعلن الرهبان الكبوشيون أن اليهود قتلوهما لاستعمال دمائهما فى طقوس عيد الفصح . ولأن الكاثوليك المقيمين فى سورية

كانوا يقعون تحت الحماية الفرنسية ، تمت التحريات حول الحادث باشتراك القنصل الفرنسى المقيم فى دمشق مع الحاكم العام السورى - وتم القبض على حلاق يهودى وتعذيبه فاعترف بأن الراهب وخادمه لقيا مصرعهما على يد سبعة من اليهود فى منزل شخص يدعى داڤيد هرارى ، وأيد خادم هرارى المسلم هذا الادعاء وإن كان قال بحدوثه فى منزل يهودى آخر غير سيده ، فتم القبض على المشتبه فيهم . ولما كان بعض المقبوض عليهم يخضع لحماية بعض الدول الغربية فقد تدخلت النمسا وإنجلترا والولايات المتحدة فى الموضوع . وكانت سورية تقع تحت حكم محمد على باشا فى ذلك الوقت ، وعندما تم العثور على بعض العظام فى مجارى منازل اليهود ازدادت الشكوك حول صحة الادعاءات الموجهة ضدهم وأعلنت سلطات التحقيق ثبوت التهمة فى حق المتهمين .

وثارت الطوائف اليهودية الأوروبية على هذا الإجراء وأرسلت وفداً يمثلها إلى مصر ، استطاع اللقاء بمحمد على باشا وقدم إليه طلباً بإعادة محاكمة يهود دمشق إما فى الإسكندرية أو أمام قضاة من الغرب . ورفض محمد على إعادة المحاكمة ولكنه أصدر قراراً بالإفراج عن اليهود المسجونين فى سورية . ومع هذا تكرر اتهام اليهود مرة أخرى - بعد أربع سنوات من حادثة دمشق - هذه المرة فى القاهرة ، بممارسة الأضحية

البشرية فى احتفالاتهم الدينية ، ثم اتهم يهود آخرون بقتل مسيحيين فى الاسكندرية وبورسعيد بعد ذلك بسنوات عدة .

ولم يعد أحد الآن يثير مثل هذه الاتهامات التى أصبحت تعتبر من التصرفات المعادية للسامية ! .

هجرة اليهود إلى مصر
في عصر محمد على

كان احتلال العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ نقطة تحول فى تاريخ اليهود المقيمين بها ، إذ أتاح العثمانيون الفرصة للجالية اليهودية فى مصر للعمل في التجارة إلى جانب بعض المهن الأخرى ، بل إن العثمانيين فى أوج انتصاراتهم استخدموا اليهود في جهازهم الإدارى فكان لهم الإشراف على الأمورالمالية وجمع الضرائب والرسوم الجمركية . واستعان غالبية الولاة العثمانيين على مصر بوكلاء من اليهود - كانوا يلقبون « صراف باشا » لإدارة الشئون المالية . ومما لاشك فيه أن هؤلاء الوكلاء أصبحوا أغنياء بسبب وظائفهم الحكومية . وكان رئيس الجالية اليهودية فى مصر يعين من بين يهود القسطنطينية فى البداية ثم أصبح وزير المالية اليهودى لدى الوالى هو المسئول عنها بعد ذلك . وعندما أصيبت الإمبراطورية العثمانية بالجمود ساءت حالة اليهود فى مصر كذلك فأصابهم الجهل والفقر ، وإن كان مستواهم التعليمى تحسن على أثر وصول اليهود المهاجرين من

شبه الجزيرة الإسبانية . وكان اليهود يعيشون - إجمالاً - فى القاهرة والإسكندرية وينقسمون إلى ثلاث جماعات : المستعربين الذين يستخدمون اللغة العربية ، والمهاجرين الإسبان والمغاربة الذين جاءوا من شمال إفريقيا ، والإشكناز القادمين من أوروبا . وكانت هذه الجماعات فى خلاف مستمر . وعندما أعلن شابتاى زيفى أنه هو المسيح الذى ينتظر اليهود قدومه اعترف به رفائيل بن چوزيف - رئيس الجالية اليهودية فى مصر - وكان زيفى زار مصر مرتين قبل ذلك .

وكان اليهود عانوا فى فترة سيطرة المماليك من سوء المعاملة ووقعوا تحت رحمة بكوات الأقاليم الذين لم يترددوا فى الاستيلاء على ممتلكاتهم فى أى لحظة ولأى سبب . والسبب المباشر الذى دفع بالعثمانيين إلى الاتجاه جنوباً هو خشيتهم من تحالف المماليك - وكانوا يسيطرون على مصر وبلاد الشام - مع دولة الفرس وتهديدهم باقتطاع شرقى الأناضول . وعلى رغم هزيمة المماليك أمام الجيش العثمانى إلا أنهم عادوا إلى الظهور مرة ثانية - هذه المرة داخل النظام العثمانى نفسه - فأصبحوا عنصراً قوياً فى خدمة الوالى العثمانى ومساعدته فى حكم البلاد ، وكان زعيمهم يلقب باسم « شيخ البلد » . وعندما انشغل العثمانيون بصراعهم مع روسيا القيصرية فى الشمال خلال القرن الثامن عشر ، أعلن على بك الكبير وأبو الذهب استقلالهما بحكم مصر ، وحاولا مد

نفوذهما ليشمل الحجاز وبلاد الشام .

وصلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون إلى أبى قير على الساحل الشمالى لمصر فى أول تموز (يوليو) ١٧٩٨ ، واستولت على الإسكندرية فى اليوم التالى . ووزع نابليون بياناً مطبوعاً بالعربية يعلن فيه للشعب المصرى أنه صديق للإسلام والسلطان العثمانى ، وإنما جاء إلى مصر ليعاقب المماليك ويحرر الشعب من سلطتهم . ثم سار بجيشه حتى وصل إلى القاهرة وهزم جيش المماليك بقيادة مراد بك فى شبراخيت وفى إمبابة . وبينما كان نابليون يحاول إقناع علماء الأزهر فى القاهرة بحسن نواياه تجاه بلادهم ، قام الأسطول البريطانى بقيادة نلسون بتدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير ولما يمر سوى شهر واحد على وصوله . وعندما أدرك أنه أصبح معزولا فى مصر عن مجرى الأحداث فى العاصمة الفرنسية وزادت المقاومة المصرية واشتعلت ضد الفرنسيين فى معارك كثيرة ، أسرع بمغادرة مصر – التى تركها فى أيد كليبر – ووجد هو طريقه عائداً إلى فرنسا . وسرعان ما فشلت الحملة الفرنسية فى مواجهة المقاومة المصرية والضغط البريطانى واضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن مصر قبل انتهاء أربعة أعوام على وصولهم إليها .

بعد رحيل الفرنسيين أرسل العثمانيون قوة إلى مصر تتضمن فرقة قوية

من الألبـان ، لكن الفـرقة الألبانية أعلنت العصيان ، وحاولت الانفـراد بحكم البلاد . وعندما قتل قائد المتمردين أصبح محمـد علي – ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره – القائد الجديد للفرقة ، وأعلن ولاءه للباب العالي في الوقت الذي حاول فيه تدعيم نفـوذه الشخصي في مواجهة العثمانيين والمماليك على السواء . وعندما اندلعت الثورة في القاهرة عام ١٨٠٥ ضد خورشيد باشا الوالي العثماني ، اختار علماء الجامع الأزهر – وكان هو المؤسسة التعليمية الوحيـدة فـي البلاد – محمد علي ليكون والياً على مصر ، في حين كان خورشيد باشا محاصراً في القلعة . ولم يجد السلطان سليم الثالث بداً من قبول اختيار المصريين لمحمد علي فثبته في هذا المنصب . وهكذا أصبح واليا على مصر بعد ثلاثة أعوام من جلاء الحملة الفرنسية عنهـا ، واستمر فـي حكم البـلاد حتـى منتصف القـرن التاسع عشر .

استطاع محمد علي القضاء على نفوذ البكاوات المماليك عندما أصدر أوامره لحراسه بقتلهم عام ١٨١١ أثناء خروجهم من وليمة كان دعاهم إليها في قلعته بالقاهرة . وباختفاء طبقة المماليك ملاك الأرض ، اختفى مصدر عدم الاستقرار السياسي الذي كان قائماً لقرون قبل ذلك ، وأصبح محمد علي هو المالك الوحيد للأرض الزراعية في مصر ، وإن بدأ بعد ذلك في توزيعها على أفراد عائلته والموالين له .

وكان محمد على يطمح إلى تطوير نظام الاقتصاد فى مصر والاستفادة من الثورة الصناعية فى الغرب ، وأدرك الوالى الجديد أهمية العلوم الحديثة فى بناء دولة قوية ، فاعتمد منذ البداية على خبراء عسكرين فرنسيين كانوا تقاعدوا من عملهم بعد هزيمة نابليون . وكان محمد على أول من استخدم الفلاحين المصريين جنوداً فى جيشه الجديد ، وإن لم يصبح للمصريين الحق فى الحصول على المراكز القيادية فى الجيش إلا بعد انتشار التعليم فى عصر أحفاده . وسرعان ما تمكن محمد على من مد نفوذه على السودان وفلسطين وسورية ، وساعدته الحملات الحربية التى قام بها فى تدعيم نفوذه فى حكم مصر ، ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسيطرته على بلاد الشام بسبب اعتراض بريطانيا والقوى الأوروبية الأخرى .

وأرسل البعثات التعليمية إلى فرنسا وأقام نظاماً للتعليم المدنى ، تاركا الأزهر يتخصص فى العلوم الدينية . وكان لإقامة مطبعة حكومية فى عصر محمد على - بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على ظهورها فـى المانيا - أثركبير فى نشر التعليم فى البلاد . ونفذ محمد على إصلاحات مهمة واستطاع إعادة تنظيم الجهاز الإدارى على الطريقة الأوروبية ، ونظم تحصيل الضرائب والقضاء والخدمات الصحية والتعليم . وكان أهم إصلاحاته يتعلق بالزراعة إذ نظم وسائل الرى ، وعمل على إقامة صناعة مصرية . وكان لانتشار الأمن فى البلاد مع وجود سلطة مركزية قوية أثر

فى تنشيط الأعمال التجارية - خصوصاً بعد حفر قناة السويس فى ما بعد - وارتفاع مستوى معيشة الأفراد . وأقام محمد على نظاماً للقضاء المدنى فتم تشكيل محكمتين للفصل فى الأمور التجارية والقضايا التى تقوم بين أفراد ينتمون إلى طوائف متعددة ، واحدة فى القاهرة والأخرى فى الإسكندرية وكان القضاة يختارون كذلك من بين الطوائف المختلفة . وتمكن محمد على قبل فترة قصيرة من وفاته من الحصول على موافقة الباب العالى باستقلاله بحكم مصر الذى أصبح وراثياً له ولعائلته من بعده .

وتحسنت حال اليهود كثيراً منذ بداية حكم محمد على ، واستمرت فى التحسن تحت حكم سلالته من بعده ، وكانت الدولة تحميهم هم وأملاكهم ، وعاملهم محمد على معاملة عادلة فى مسائل الضرائب فساواهم مع غير المسلمين فى مصر . وأدى انتشار الأمن والطمأنينة فى أيام محمد على إلى هجرة العديد من يهود إيطاليا واليونان إلى مصر فزاد عدد أفراد الجالية اليهودية من القرائين والربانيين الذين عاشوا فى المدن وتعاملوا فى التجارة والخدمات العامة .

وبحسب ما جاء فى كتابات كلوت بك - الطبيب الفرنسى الذى استخدمه محمد على ليعمل على تحسين المستوى الصحى فى البلاد - كان هناك حوالى سبعة آلاف من اليهود يعيشون فى مصر فى بداية حكم محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر . وبحسب التعداد الذى قام به

البريطانيون عند احتلالهم لمصر وصل العدد قبل نهاية هذا القرن الى ٢٥ ألفاً ، كما زاد عدد أفراد الشعب المصرى - فى تلك الفترة - من مليونين الى تسعة ملايين ، وان كان جزء كبير من هذه الزيادة يرجع إلى هجرات العرب والأجانب إلى مصر للاستفادة من تحسن ظروف الحياة فيها أيام حكم محمد على وأسرته .

وتوزعت إقامة غالبية الجالية اليهودية بين القاهرة والإسكندرية وبورسعيد وطنطا والمنصورة والإسماعيلية والسويس والمحلة الكبرى وميت غمر وزفتى ، وكان عملهم بشكل أساسى فى المسائل المالية وعمليات الصرافة والتسليف والرهونات وكذلك فى تجارة التجزئة ، ثم اشتركوا فى عمليات الإنتاج الصناعي واستطاع عدد كبير منهم الحصول على حماية بعض الدول الأوروبية عن طريق الحصول على جنسية هذه الدول مع إقامتهم فى الأراضى المصرية .

ولا شك في أن محاولة محمد على ، وإن فشلت فى تحقيق ما كانت تهدف إليه في البداية من الاستقلال بالعالم العربى عن الإمبراطورية العثمانية ، نجحت - بالنسبة إلى مصر - فى تحقيق أول خروج عن السيطرة التركية . إلا أنها فى الوقت نفسه أبعدت مصر لمدة طويلة عن الاشتراك فى تطورات الوضع فى المنطقة العربية . وكان للنجاح العسكرى الذى حققه محمد على فى البداية رد فعل سيئ أدى إلى تحالف القوى

الأوروبية ضده سواء في المجال السياسى أو الاقتصادى لمنع تحقيق أمنيته بكل الوسائل ، إذ كان من الممكن أن تدخل مصر مرحلة الثورة الصناعية مثل باقى الدول الأوروبية . ولا شك كذلك فى أن استقرار الأمن ونمو الحركة التجارية فى أيام محمد على شجعا اليهود على الهجرة إليها فصاروا قوة مهمة فى المجتمع المصرى عملت الحركة الصهيونية في ما بعد على اكتسابها لصالح أهدافها الجديدة فى الحصول على وطن لليهود فى فلسطين .

الفلسفة اليهودية الحديثة
ترفض فكرة الشعب المختار

واجه الأحبار اليهود فى أوروبا الغربية - خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - أكبر تحد لسلطتهم ،كان الأخطر فى أى مرحلة من مراحل تاريخهم الطويل ، وأدركوا عجزهم عن الاستمرار فى فرض سيطرتهم واعتقاداتهم على أفراد الطوائف اليهودية . وكان لانتشار حركة التنوير الفكرى فى أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، ثم لنجاح الثورة الفرنسية بعد ذلك بثلاثة قرون ، أثر بالغ الأهمية على سلوك الأفراد اليهود بدول أوروبا الغربية ، فبعد أن كانت المجتمعات الأوروبية تفرض عليهم المعيشة داخل أسوار مغلقة فى مناطق محددة وارتداء ملابس مميزة ، أصبح من حق اليهود شراء العقارات والانتقال بحرية فى أى مكان . وبعد أن كان محرماً عليهم الاشتغال إلا بالمهن الثانوية والمكروهة - مثل التسليف بالربا - أصبح من حقهم الحصول على الوظائف الحكومية والالتحاق بصفوف الجيش والعمل فى أية مهنة يختارونها ، كما صار من

حقهم تلقى العلم فى المدارس والجامعات المدنية . وخشى قادة اليهود من أن يؤدى هذا الانفتاح إلى ذوبان اليهود فى بوتقة المجتمعات التى يعيشون بها وفقدانهم لاستقلالهم ، مما يقضى على فكرة الشعب المختار. فبينما كان أفراد اليهود يعانون من العزلة الاجتماعية المفروضة عليهم ويتمنون التحرر فى سلوكهم من كل القيود والمساواة مع باقى أفراد المجتمع ، اعتبر الأحبار أن هذه العزلة ضرورية لضمان استمرار الاعتقاد الربانى بأن اليهود هم الشعب المختار .. وهم مازالوا فى انتظار اليوم الذى يرسل لهم الرب « مسيحه الملك » لينصرهم على أعدائهم من الشعوب الأخرى .

حدث هذا التطور فى الفكر اليهودى فى غرب أوروبا حيث ساعد انتشار الفكر التنويرى على خروج اليهود من عزلتهم والاندماج فى المجتمعات التى يعيشون بها ، ولم يكن الأمر على المستوى نفسه فى بلدان شرق أوروبا . ولأن حياة اليهود فى أوروبا طوال تاريخهم الطويل كانت تقوم على أسس من العزلة الاجتماعية والعداء المتبادل مع المجتمعات التى يقيمون فيها ، فإن التطور الذى حدث فى النظم الاجتماعية فى أوروبا وقبول أفراد الطوائف اليهودية على أنهم مواطنون فى بلدانهم لهم الحقوق نفسها مثل باقى المواطنين وعليهم الواجبات نفسها ، دفع ببعض المفكرين اليهود إلى القول بوجوب التخلى عن العزلة الطائفية والذوبان فى المجتمع . وبينما كانت الفكرة القديمة تقوم على أن اليهود يمثلون شعباً واحداً

متفرقاً في بلدان عدة ، اعتبر المفكرون اليهود الجدد أن اليهودية ليست شعبا وإنما هى ديانة وأن اليهود جماعة دينية ، وجزء من المجتمع الذى يعيشون فيه . كما ظهرت فكرة جديدة في هذه الفترة عـن المسيح المنتظر ، فبينما كانت الفكرة التقليدية تقول بأن المسيح الملك الذى سيأتى من سلالة داود سوف ينصر اليهود ويعيد بناء معبد القدس ويجمعهم حوله ، قال المفكرون الجدد - الذين قبلوا ضمنياً أن يسوع هو المسيح - أن عنصر الخلاص سيأتى في نهاية الأيام ويشمل كل البشر ، الذين يعيشون سويا فى مجتمع العدالة والصلاح .

وساعدت التطورات التى حدثت فى المجتمعات الأوروبية اليهود، منذ بداية عصر التنوير ، على الخروج من عزلتهم تدريجياً والانفتاح على المذاهب الفكرية الجديدة ، وكان الأحبار يحرمون الفكر الفلسفى ، وأقبل اليهود بنهم على الدراسات الفلسفية حينما تم تحريرهم والسماح لهم بالاشتراك فى نشاطات المجتمع المسيحى ، فبدءوا يحاولون الإجابة على الأسئلة الفلسفية التقليدية وظهرت الأفكار الفلسفية أولاً بين صفوف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية سواء فى سبه الجزيرة الإسپانية أو الذين هاجروا منها واستقروا بفرنسا وإيطاليا وهولندا ، فى محاولة منهم لإيجاد تفسير للديانة المسيحية يتفق مع اعتقاداتهم اليهودية السابقة . حتى أنه فى هذه الفترة ظهر فرع مسيحى لمذهب « القبالة » اليهودى ، الذى يقرب

ما بين الديانتين . وكانت أمستردام بهولندا أحد المراكز المهمة لتجمع اليهود الذين اعتنقوا المسيحية خلال القرن السابع عشر ، والذين لجئوا إلى الفلسفة الأوروبية فى محاولة لتفسير موقفهم . وكما ظهرت الاتجاهات الفلسفية التى تقرب بين اعتقادات الديانتين بين هؤلاء ، ظهرت كذلك اعتقادات تختلف مع الفكرين اليهودى والمسيحى معاً .

وكان أول من دخل منهم حلبة الفكر الفلسفى فى المانيا هو موسى مندلسون بكتاباته فى علوم النفس والجماليات ، ما وراء الطبيعة وأصبح مندلسون - وكان صديقا للفليسوف إيمانول كانت - أحد أعلام حركة التنوير فى المانيا ، كما حاول التدليل على أن بعض الاعتقادات الفلسفية التى سادت خلال القرن الثامن عشر والتى كانت تقول بوجود الإله الخالق وتنكر الوحى ، ماهى إلا اعتقادات يهودية فى أصلها . وساعد نقد التوراة الذى قام به إسحاق لابيرير على ظهور مذهب إيديولوچى جديد فى فلسفة اسپينوزا .

وكان لأفكار باروخ اسپينوزا - وهو فيلسوف يهودى هولندى ولد فى أمستردام عام ١٦٣٢ ومات فى الخامسة والأربعين من عمره - أثر كبير ليس فقط بين اليهود وإنما فى الفكر الأوروبى الحديث بشكل عام . كانت عائلة اسپينوزا هاجرت من البرتغال تحمل معها بذور الفلسفة

الإسلامية من الأندلس ، فعملت على إلحاقه بالمدارس المدنية لتلقى العلوم الحديثة والفلسفة الغربية الجديدة ، مما جعله منبوذاً من الطائفة اليهودية فى أمستردام التى قررت طرده من صفوفها . وبينما اشتغل اسپينوزا فى إنتاج عدسات النظارات الطبية فهو أمضى وقت فراغه فى دراسة مذاهب الفكر والفلسفة . وتضمن أهم أعماله « رسالة سياسية لاهوتية » نقداً للفكر التوراتى داعياً للنظر إلى التوراة ، لا على أنها تتضمن الحقيقة الفلسفية أو العلمية ، ولكن باعتبارها مرشداً أخلاقيا وروحانياً . وبدأ اسپينوزا من بعض الأفكار التى ظهرت بين أفراد الطائفة اليهودية فى هولندا واعتبرها الأحبار خروجاً على الفكر اليهودى ، وطورها لتصبح مذهبا لتفسير العالم تفسيراً عقلياً مع مبادئ العلوم الطبيعية ، وسرعان ما سادت فلسفة اسپينوزا التى أصبحت تعتبر ممثلة للفكر الأساسى للإنسان الحديث ، وكان لها أثر كبير فى فلاسفة عصر التنوير خصوصاً فى المانيا ، حتى أصبح اسپينوزا رمزاً للفلسفة الحديثة .

كان المفكرون اليهود خلال العصر اليونانى والعصور الوسطى يعتبرون أن التوراة والتلمود هما من الوحى الإلهى الذى يجب الالتزام به حرفيا على مدى العصور . فجاء المفكرون اليهود منذ القرن الثامن عشر يقولون بأن اليهودية ما هى إلا ديانة من صنع الإنسان ، تطورت خلال الزمن لتأخذ أشكالاً متعددة من الممكن فى العصر الحديث عدم قبول بعض

أجزائها . كما قبل الفلاسفة اليهود الجدد فكرة اعتبار العالم يسير حسب قوانين الطبيعية . وفي هذه الفترة فرق اليهود - للمرة الأولى - بين العلم والفلسفة ، فأدركوا أن المعرفة العلمية التى تعتمد على التجربة والحواس تختلف عن الفلسفة التى تعتمد على العقل والمنطق . وأصبح هناك تباعد بين الاعتقادات اليهودية التقليدية وبين فكر الفلاسفة اليهود الحديثين . بل أن أفكار عصر النهضة وقبول المجتمعات الأوروبية الحديثة لليهود كمواطنين بها والكف عن محاولات تنصيرهم ، أدت إلى حدوث تغير جوهرى فى الفكر اليهودى التقليدى ذاته ، وبدأ اليهود يرفضون بعض اعتقاداتهم القديمة - وكانوا يعتبرونها قضايا مسلمة - على أنها لا تتفق مع منطق العقل . وتطور الأمر عندما ظهر بعض الفلاسفة اليهود الذين اعتبروا اليهودية كما لو كانت مجرد نوع من الثقافة والفكر الاجتماعى وليست ديانة .

وفى القرن التاسع عشر - عندما انتشرت أفكار الثورة الفرنسية الخاصة بالمساواة بين المواطنين بصرف النظر عن أصلهم السلالى أو اعتقاداتهم الدينية - أصبح لليهود الحق فى الالتحاق بالجامعات بل والتدريس بها ، وراحوا يشتركون فى جميع نواحي النشاط الذهنى . ومع نهاية القرن التاسع عشر - وكان العداء لليهود كاد يختفى تماماً فى المجتمعات الأوروبية - كانت غالبية اليهود خرجت من عزلتها

واندمجت فى المجتمعات الجديدة .

وحدثت تغيرات أساسية فى الفكر اليهودى منذ نهاية العصور الوسطى ، وبدأت حركة تنوير عام ١٧٧٠ داخل الطائفة اليهودية أطلق عليها اسم « هسكله » وكان أفرادها يسمون « مسكليم » ونادت حركة هسكله بضرورة إدخال المواد العلمية فى دراسات التلاميذ اليهود ، وكان الأحبار لا يعلمونهم سوى التوراة والتلمود ، إذ كان الاعتقاد السائد أن دراسة المواد الأخرى تبعد الطلاب عن الاعتقادات اليهودية . كما عملت هسكله على اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون بها وتعلم لغاتها وآداب السلوك الاجتماعى وطالبتهم بالانتماء إلى مجتمعاتهم . واعتبر المسكليم أن الطريقة الوحيدة للحصول على التحرر والمساواة فى مجتمعاتهم هى أن يقوم اليهود أنفسهم بقبول هذه المجتمعات والذوبان داخلها . ولهذا السبب عمل المسكليم على اشتراك اليهود فى الأعمال الإنتاجية فى مجال الزراعة والصناعة وليس الاقتصار على الأعمال الهامشية مثل التسليف والتجارة .

وظهرت ثلاث جماعات متباينة داخل الطائفة اليهودية خلال القرن التاسع عشر لكل منها فلسفتها الخاصة ، وبينما ظلت الطائفة الأولى تعمل على الحفاظ على الفكر اليهودى الربانى الذى يعتمد على

التلمود ، وإن كانت اضطرت إلى محاولة التوفيق بين هذه الاعتقادات وبين الرغبة فى قبول الانفتاح على المجتمع الأوروبى والاندماج فيه ، وكانت هذه الجماعة ترغب فى عدم تخلى اليهود عن انتمائهم إلى الكيانات الطائفية ، كانت الطائفة الثانية - التى تطورت بعد ذلك فى الولايات المتحدة الأميركية لتصبح الحركة المحافظة - مع التزامها بتعاليم اليهودية الربانية ، تنادى بتغير التعاليم اليهودية لتتفق مع التغيرات التى حدثت فى المجتمعات التى يعيشون بها . ونادت الجماعة الثالثة التى عرفت باسم الحركة الإصلاحية الليبرالية بتغيير طقوس العبادة اليهودية القديمة مع الاحتفاظ بجوهر الاعتقاد بالتوحيد . وأمام هذا التطور الذى كان يسير فى طريق ذوبان اليهود فى مجتمعاتهم وتحول اليهودية إلى ديانة - لا تعتمد على فكرة الشعب المختار - بدأت فى روسيا القيصرية بذور الحركة الصهيونية التى جعلت شعار الشعب اليهودى جوهر مبادئها وأساس أهدافها .

ظهور جمعيات « حبات صهيون »
وبداية حركة اليهودية السياسية

كان لانتشار أفكار التنوير ومبادئ الثورة الفرنسية في بلدان أوروبا الغربية أثر مهم فى تحرير اليهود من عزلتهم الطائفية واعتبارهم مواطنين لهم الحقوق والواجبات نفسها فى مجتمعهم مثل باقى المواطنين من غير اليهود . وبالطبع فإن غالبية الأفراد اليهود خرجت من عزلتها الطائفية واندمجت مع باقى أفراد المجتمع . وأدى انتشار التعليم المدنى بينهم إلى ظهور مفكرين وفلاسفة وعلماء مشهورين . إلا أن هذا الانتصار والتحرر صحبهما خوف من جانب قادة الجماعات اليهودية أن يؤدى هذا الانفتاح إلى انتهاء الكيان المستقل لليهود الذى ظل قائماً لمئات من السنين .

ولما كانت اليهودية الربانية تقوم على اعتبار اليهود هم « شعب الله المختار » وأن النصر الإلهى الذى ينتظرونه سوف ينصرهم على أعدائهم من الأمم عندما يقودهم مسيحهم فى حكم العالم بأجمعه ، فإن ذوبان اليهود

داخل المجتمعات التى يعيشون بها لابد وأن يتعارض مع هذا الاتجاه . ومع هذا لم يتمكن قادة الطوائف اليهودية فى أوروبا الغربية من الوقوف فى وجه التيار ، إذ أقبل اليهود بنهم على المكاسب الجديدة التى حصلوا عليها . بل إن بعضهم كان على استعداد للتخلى عن الديانة اليهودية نفسها . إلا أن الوضع كان مختلفاً تماماً فى دول أوروبا الشرقية التى تأخرت في منح اليهود حقوق المواطنين ، وهنا بين جماعات اليهود الإشكناز - وكانوا يمثلون ٩٠ فى المائة من يهود العالم - ظهرت الأفكار والجماعات التى قاومت ذوبان اليهود فى مجتمعاتهم ، بل إن القادة الجدد قالوا إن اليهودية ليست ديانة على الإطلاق وإنما هى رباط قومى يجمع بين أفرادها أينما تفرقوا ، وهو المحور الذى دارت حوله الحركات الصهيونية فى مابعد .

وأول ماظهرت الحركة التى عرفت فى مابعد باسم الحركة الصهيونية كانت رد فعل للتغيرات الفكرية بين اليهود خلال القرن التاسع عشر ، مثل قيام حركة هسكله التى تهدف إلى نشر الفكر التنويرى بين اليهود ، وحاولت إذابة الجماعة اليهودية بالمانيا داخل المجتمع الألماني ، وكانت هسكله ترى وجوب خروج اليهود من عزلتهم وارتباطهم بمجتمعاتهم حتى يمكن للآخرين قبولهم كمواطنين معهم ، ولكن كان هناك فريق آخر من اليهود الذين أدركوا أن هذا الاتجاه يعنى بالضرورة اختفاء الكيان

الطائفي لليهود وبالتالي - في اعتقادهم - اختفاء اليهودية نفسها . فقام هؤلاء بتحريض اليهود في مطبوعاتهم مثل « هاشاهار » و« هاماجيد » على رفض الذوبان في المجتمع . بل أن بعضهم قال إن اليهودية في أساسها ماهى إلا ارتباط قومى وليست اعتقاداً دينياً . واعتمدت الحركة الصهيونية على فكرة الخلاص المسيحى الذى ينتظره اليهود - بعد أن أفرغتها من المضمون الروحاني - وحولتها إلى فكرة سياسية تهدف إلى إقامة وطن قومى لليهود . وكان اليهود أصيبوا بخيبة أمل كبيرة على أثر ظهور شابتاى زيفى ، إذ اعتقدوا بأنه هو مسيحهم المنتظر ، فإذا به يترك اليهودية ويعتنق الإسلام داعياً يهود العالم لاتباع الطريق نفسها .

وكانت الطوائف اليهودية في بلدان أوروبا الغربية بدأت تفقد تماسكها ومبرر وجودها بعد أن قامت هذه البلدان بإلغاء القيود التي كانت مفروضة على اليهود وساوت بينهم وبين باقي المواطنين ، فأصبح لهم الحق في الدراسة في الجامعات والعمل في أى مهنة يختارونها بما في ذلك الوظائف الحكومية وشراء العقار والإقامة في أى مكان يرغبون فيه . وساعد التعليم المدنى في إحداث تغير كبير في الفكر اليهودى جعلهم يخرجون من عزلتهم معتبرين أن اليهودية ليست كياناً اجتماعيا وأن اليهود ليسوا شعباً أجنبياً في البلدان التي يعيشون بها ، وإنما هم مواطنون في هذه البلدان لهم اعتقادات وممارسات دينية مختلفة . وأصبح هذا الوضع

يهدد بذوبان الكيانات اليهودية داخل مجتمعاتها واختفاء النظام الطائفى تماماً . إزاء هذا الوضع الذى اعتبره قادة اليهود خطراً على تماسك واستقلال كيانهم الاجتماعى ، ظهرت فى شرقى أوروبا - فى روسيا القيصرية وبولندا ورومانيا - حركة مضادة تهدف إلى الحفاظ على الجوهر القومى فى الفكر اليهودى ، باعتبار أنهم طوائف تعيش متفرقة فى مختلف بلدان العالم ، ولكنها تتطلع إلى اليوم الذى يمكنها فيه أن تتجمع فى وطن قومى واحد ، والحركة الجديدة التى عرفت باسم « حبات صهيون » - أى الحب لصهيون - التى قامت خلال القرن التاسع عشر ، عملت على تذكير اليهود بأنهم غرباء منفيون فى البلدان التى يقيمون بها وعليهم الاحتفاظ باستقلالهم والاحساس بانتمائهم إلى فلسطين .

وبدأ بعض الدعاة منذ منتصف القرن الثامن عشر ينادى بضرورة العمل على تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، وقام حاييم لورج بتكوين شركة فى مدينة فرانكفورت الألمانية هدفها تهجير اليهود لهذا الغرض ، ومع هذا فإن هذه الدعوة لم تجد آذانا صاغية من اليهود فى بدايتها ، وكانت غالبيتهم تطمع فى الاستفادة من تحسين وضعهم فى البلدان التى يعيشون بها . ووجدت « حبات صهيون » صعوبة فى البداية فى إقناع اليهود بأهدافها السياسية . حيث كان الاعقاد الدينى يقول بعدم الذهاب

إلى القدس إلا بعد مجئ المسيح . وحاول انشيل روتشايلد شراء الأرض الفلسطينية من محمد على باشا عندما كانت تخضع لسلطانه ولكن الوالى رفض هذا العرض . وبدأ النقاش فى المانيا والمجر فى ستينات القرن التاسع عشر لتحديد طبيعة اليهودية وما إذا كانت تعتبر حركة قومية أم ديانة وعبادة ، وبينما أصر البعض على اعتبار اليهود شعباً **انتهى النقاش باعتبار الأغلبية أن اليهود مواطنون فى البلدان التى يعيشون بها ، وقرروا حذف النصوص المتعلقة بالدعوة القومية ، وكذلك أى إشارة إلى صهيون أو القدس من كتب الصلاة اليهودية ، التى يجب أن تقوم على الاعتقادات الدينية فقط .**

إلا أن الوضع اختلف عن ذلك تماماً فى دول الشرق حيث انتشرت مبادئ « حبات صهيون » بسرعة وسط الشباب اليهودى . وأول مابدأت حركة « حبات صهيون » فى روسيا القيصرية فى وقت عانى اليهود فى شرق أوروبا ، خصوصا بعد مقتل القيصر الإسكندر الثانى عام ١٨٨١ ، روجود فتاة يهودية بين المتهمين باغتياله وتعرض اليهود لحملات حكومية وشعبية ضدهم أجبرت عددا كبيراً منهم على الهرب خارج البلاد . وتكون العديد من جمعيات الشباب اليهودى المحبين لصهيون فى روسيا وبولندا ورومانيا ، الذين عملوا على تعلم اللغة العبرية والتبشير بوطن لليهود لا يخضعون فيه لسلطة غيرهم . **وبينما طرح البعض هجرة يهود شرق**

أوروبا إلى فلسطين أرض الآباء ، فإن الغالبية العظمى منهم فضلت الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية - هاجر مليونان وستمئة ألف يهودى إشكنازى من روسيا وشرق أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية مابين مقتل القيصر الروسى وقيام الحرب العالمية الأولى - ولم يذهب إلى فلسطين سوى عدد قليل منهم . واعترضت الحكومة العثمانية على فتح باب هجرة اليهود إلى فلسطين ، ومع نهاية ثمانينات القرن التاسع عشر تبين فشل المستوطنين اليهود فى فلسطين وعدم استطاعتهم الحياة هناك دون مساعدة خارجية ، ولولا تدخل البارون ادموند دى روتشايلد بمساعدته المالية لعاد المهاجرون إلى أوطانهم الأصلية.

وانعقد المؤتمر الأول لجمعيات حبات صهيون فى السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤ ، وكان غالبية الحاضرين من روسيا ، واستطاعت حركة حبات صهيون تشكيل مئة جمعية فرعية لها فى روسيا بلغ عدد أعضائها ١٣ ألفاً . وعلى أمل اجتذاب يهود البلدان الغربية ، قرر المجتمعون - بعد أن أدركوا فشل الحركة فى تحقيق تجمع حقيقى للطوائف اليهودية المنتشرة فى العالم - تكوين مركز لهم فى برلين ، ومع هذا فشلت الحركة فى العثور على شخصية يهودية ألمانية معروفة تقبل رئاسة مركز برلين ، فعدل عن هذا القرار ، وإدراكا منها لعدم إقبال يهود غرب أوروبا على الانضمام إلى

الحركة ، عقد الاجتماع الثانى لحبات صهيون فى روسيا فى حزيران (يونيو) ١٨٨٧ ولم يحضره سوى المندوبين عن الجماعات الروسية . وقرر المؤتمر فتح مكتب للحركة فى مدينة يافا الفلسطينية تعمل على شراء الأراضى فى فلسطين وتوطين المهاجرين من الروس فيها . وعارضهم فى خططهم أحد المفكرين اليهود « أحدها أم » الذى قال أن الحصول على أرض فلسطين موطناً لليهود لن يحل المشكلة اليهودية ، وطالب بأن تكون هذه الأرض مركزاً روحياً - أو كعبة - لليهود ، وليس موطنا لهم . وكان السبب الذى دفع هذا المفكر اليهودى إلى رفض الخيار الفلسطينى لإقامة وطن اليهود أنه لايمكن استيعاب كل الطوائف اليهودية المنتشرة فى العالم ولهذا فضل هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومحاولة البقاء فى روسيا مع العمل على تحسين أحوالهم هناك . وبدأت الحركة تزداد شعبية عندما أصبح تيودور هيرتزل - الذى كان لايؤمن بالأديان ويعمل صحافياً فى ڤيينا - رئيساً للحركة الصهيونية الوليدة العام ١٨٩٧ . وكان هيرتزل فى البداية من أشد المتحمسين لذوبان اليهود فى مجتمعاتهم حتى أنه اقترح عليهم أن يطلبوا التعميد المسيحى جماعيا عسى أن يضع هذا حداً للمشكلة ولكنه تراجع عن هذا الاتجاه وصار يطالب بضرورة أن يهاجر اليهود إلى أرض ليس بها سكان ،

ويقيموا لأنفسهم دولة لايحكمهم فيها أجنبى ، ولهذا الغرض اقترح تكوين لجنة مهمتها البحث عن المنطقة الصالحة ليقوم اليهود بالمطالبة بحقهم فى إقامة دولتهم بها . وكان على استعداد للموافقة على اختيار مناطق من الأرجنتين أو أوغندا لتكون هى موطن الدولة اليهودية المقترحة .

إلا أن النجاح الحقيقى للحركة الصهيونية لم يتم إلا عندما أصبح نفوذها يمتد فى دول أوروبا الغربية ، وعندما أمكن اقناع اليهود الغربيين بعدم وجود تعارض بين حصولهم على حقوق المواطنة فى بلدانهم الغربية وبين اشتراكهم فى بناء وطن قومى لليهود ، وأصبحت هذه العملية أكثر سهولة بعد أن هاجر العديد من يهود الشرق ليقيموا فى الغرب . ومن بين هؤلاء ظهر حاييم وايزمان فى بريطانيا الذى وضع الأحلام الصهيونية موضع التنفيذ .

انتقال قيادة الحركة الصهيونية
إلى بريطانيا العظمى

كان نجاح اليهود فى إقامة علاقة مع الإنجليز ـ السادة الجدد لمنطقة الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر ـ هو بداية الطريق لعودة حاييم وايزمان عام ١٩١٧ ومعه تفويض من حكومة صاحب الجلالة لتكوين دولة إسرائيل الجديدة على أرض فلسطين .

لم يصل اليهود إلى الجزر البريطانية إلا فى القرون الوسطى ، وكانت أول مجموعة هناك هاجرت من مقاطعة نورمندى بشمال فرنسا إلى إنجلترا فى أيام ويليام الفاتح خلال القرن الحادى عشر . وكان المهاجرون الأوائل يشكلون مجموعة صغيرة من رجال المال والتجارة توزعت على معظم المدن الكبيرة فى ذلك الوقت . ولم يمض قرن من الزمان حتى واجه يهود إنجلترا الاتهام بقتل الأطفال المسيحيين ـ فى مدن نوريتش ثم بيرى سانت ادمونس وبرستول ـ كأضحية بشرية فى عيد الفصح ، وكانت هذه أول مرة توجه هذه التهمة إلى اليهود فى أوروبا . وعندما بدأت الحركة الصليبية عند جلوس ريتشارد الأول على العرش ، بدأت

المظاهرات الحماسية وأعمال الشغب التى راح ضحيتها العديد من يهود لندن عام ١١٨٩، كما تم إحراق صكوك الديون والسلف التى أخذها اليهود فى الوقت نفسه ، وانتشرت هذه الظاهرة بعد ذلك فى المدن الإنجليزية الأخرى .

وعندما جاء إدوارد الأول قام عام ١٢٧٥ بإصدار مرسوم يحرم على اليهود التعامل بالربا ، وسمح لهم الاشتغال بالتجارة واستئجار المزارع . ومع هـذا استمر اليهود فى التعامل بالربا سراً فقرر الملك فى ١٨ تموز (يوليو) ١٢٩٠ طرد جميع اليهود من إنجلترا ، فذهبوا إلى فرنسا والمانيا ، ولم يكن عددهم يزيد على أربعة آلاف . واستمر اليهود ممنوعين من الهجرة إلى إنجلترا إلى أن تم طردهم من إسبانيا والبرتغال على أثر سقوط دولة الأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر . وبدأ اللاجئون الإسبان فى الهجرة إلى لندن منذ أيام هنرى الثامن ، وزاد عددهم أيام الملكة اليزابيث . وكان لترجمة كتب العهد القديم إلى اللغة الإنجليزية فى عهد الملك چيمس خلال القرن الخامس عشر أثركبير فى تغييرشعور العداء الذى كان سائدا تجاه اليهود من قبل . ثم أصدر البرلمان الإنجليزى قراراً عام ١٦٩٨ يمنع الممارسات المعادية للمسيحية ، ويسمح بشرعية قيام العبادة اليهودية فى البلاد .

بعد ذلك ازداد عدد أفراد الطائفة اليهودية فى إنجلترا كما ازدادت ثرواتهم وأهميتهم الاجتماعية ، وكانت غالبية القادمين الجدد من سلالة المهاجرين من شبه الجزيرة الإسپانية من السفارديم الذين استقروا كذلك في دبلن بإيرلندا .

وكانت الطبقة المهمة فى الطائفة اليهودية تتكون من السماسرة والتجار الذين يقومون باستيراد البضائع الأجنبية ، ثم بدأ اليهود الإشكناز يأتون من المانيا وشرق أوروپا منذ أواخر القرن السابع عشر وكانوا أقل مالاً وثقافة ، وعمل معظمهم كباعة متجولين فى المناطق الريفية . وفى عام ١٧٥٣ تم تقديم مشروع للبرلمان بإعطاء الجنسية لليهود الذين ولدوا خارج إنجلترا ، وكان المولودون فى البلاد حصلوا عليها بسبب المولد .ومنذ أواخر القرن الثامن عشر شكل اليهود مجلس المفوضين عن الطوائف اليهودية فى إنجلترا الذى أصبح مسئولاً عن تنظيم علاقات الطوائف اليهودية فى ما بينها ، وكذلك علاقات اليهود بشكل عام مع السلطات البريطانية وغير اليهود ، بل إن هذا المجلس – مع امتداد نفوذ الاستعمار الإنجليزى – أصبح يتدخل لصالح الطوائف اليهودية الموجودة بالمستعمرات كذلك . وخلال القرن التاسع عشر عمل يهود إنجلترا على استخدام النفوذ الإنجليزى فى حماية مصالح الطوائف اليهودية فى جميع أنحاء العالم خصوصاً في بلدان العالم الإسلامى ، وكان لحروب ناپليون تأثير

كبير فى الطائفة اليهودية في إنجلترا ، إذ بدأت بعض العائلات الإشكنازية - من أمثال عائلة روتشايلد - تحتل مراكز مهمة فى النشاط المالى الإنجليزى لوجود علاقات عائلية لها في باقى الدول الأوروبية ، كما أصبح اليهود الإنجليز يطالبون بالحصول على الحقوق نفسها التى منحتها الثورة الفرنسية لليهود من المساواة التامة في الحقوق والواجبات مع باقى المواطنين . وكان يهود إنجلترا في أحسن حال من باقي الدول الأوروبية حيث كانوا يتمتعون بحرية اجتماعية كبيرة منذ البداية ، وكانت القيود التجارية محدودة فى مدينة لندن التجارية .

وتقرر حقهم فى دخول البرلمان عام ١٨٥٨ وأصبح ناثانيل دى روتشايلد أول عضو يهودى فى مجلس اللوردات بعد ذلك بفترة وجيزة كما صار سير ديفيد سالمونز أول يهودى يصبح عمدة لمدينة لندن ١٨٥٥ . وأصبح تحرر اليهود كاملاً منذ ١٨٩٠ حينما تم إلغاء شروط الدين للحصول على أى وظيفة سياسية . وسرعان ما جلس بنيامين دزرائيلى - وهو يهودى الأصل والاعتقاد - على كرسى الوزارة نفسها وحصل على أعلى منصب حكومى في البلاد . وكان إسحاق دزرائيلى - والد بنيامين - من اليهود السفارديم الذين هاجروا من إسبانيا ، ولكنه قرر الانفصال عن الطائفة بسبب خلاف نشأ بينه وبين قادتها فى لندن وقام بتعميد أولاده الذين ولدوا فى إنجلترا - ومن بينهم بنيامين - كأعضاء فى

كنيسة إنجلترا . وبعد إتمام دراسته في المدارس المسيحية ، بدأ بنيامين دزرائيلى حياته كأديب يكتب الروايات الساخرة التى تدور أحداثها حول المجتمع السياسى اللندنى . وكان من الواضح فى أفكاره أنه - وإن قَبِلَ العمادة المسيحية وهو فى الثالثة عشرة من عمره - كان أشد تمسكاً بأصله اليهودى ، فهو يؤمن بأن الكنيسة المسيحية بل والحضارة الغربية بأكملها ، مدينة لليهود الذين علموهم القيم الدينية والروحانية . وعن طريق نشاطه الأدبى استطاع دزرائيلى أن يكوّن علاقات قوية فى المجتمع البريطانى ثم التحق بحزب المحافظين وصار من أشد المدافعين عن سياستهم وتطورت أهمية دزرائيلى فى حزب المحافظين حيث أصبح عضوا فى البرلمان ثم وزيرا للخزانة قبل أن يصبح رئيسا للوزراء وصديقاً للملكة فكتوريا . وكان دزرائيلى خلال سنوات حكمه الست - بمساعدة آل روتشايلد - هو الذى اشترى حصة مصر من أسهم قناة السويس لحساب الحكومة البريطانية ، عندما أثقل إسراف الخديوى إسماعيل الميزانية المصرية بالديون عام ١٨٧٥ ، وكافأته الملكة فكتوريا بمنحه لقب ايريل لمقاطعة بيكونزفيلد .

وكانت بريطانيا قد أصبحت قوة سياسية واقتصادية وعسكرية مهمة فى تلك الفترة بسبب قيام الثورة الصناعية بها . ففى بريطانيا تطورت العلوم والتجارب وكانت الفرصة مناسبة لظهور أول نتائج الثورة الصناعية ، وساعد فى ذلك وجود عدد كبير من الأنهار لتسهل عملية نقل البضائع

وكذلك سهولة الحصول على المواد الخام من البلدان المستعمرة بأسعار زهيدة . وكانت هذه البلدان هي السوق المفتوحة لاستهلاك ما تنتجه المصانع البريطانية . وكانت صناعة الأقمشة تعتمد على أفراد متفرقين يعملون فى منازلهم على آلات يدوية مقابل أجر بالقطعة ، إلى أن تم إنتاج ماكينة متطورة للقيام بهذه العملية عند منتصف القرن الثامن عشر ، أدى إلى تجميع العمال الذين يؤدون عملهم مقابل أجر محدد ، فى مكان واحد . وأحدث اختراع الماكينة التى تعمل بقوة البخار عام ١٧٦٣ تطوراً ثورياً فى عملية الإنتاج سواء من ناحية الكمية المنتجة أو من ناحية مستوى الإتقان . ساعد توافر مناجم الحديد - وكذلك الفحم الذى يستعمل لصهر هذا المعدن - فى الأراضى البريطانية على صناعة الآلات من هذه المادة الصلبة وكانت تصنع قبل ذلك من خشب الأشجار .

وأدت الثورة الصناعية إلى وجود تجمعات مهمة لليهود الإشكناز فى المراكز الصناعية الجديدة مثل مانشستر وبيرمنجهام وبرادفورد ، ولو أن بعض اليهود الشوام استقر فى مانشستر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكانت الصناعات التى اهتم بها اليهود خصوصاً تتعلق بإنتاج الملبوسات ، وبالأخص الملابس الجاهزة . وزاد عدد اليهود المهاجرين إلى بريطانيا بعد مقتل القيصر فى روسيا عام ١٨٨١ ، وهم جاءوا من روسيا وشرق أوروبا يحملون معهم أفكار حبات صهيون ، فزاد عدد أفراد

الطائفة اليهودية فى بريطانيا من ٦٥ ألفاً عام ١٨٨٠ حتى بلغ ٣٠٠ ألف عام ١٩١٤ .

قامت الثورة الصناعية أولاً فى إنجلترا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويطلق هذا التعبير على المرحلة التى تم فيها استخدام الآلة فى عملية الإنتاج بدلاً من القوة البدنية سواء للإنسان أو للحيوان . وفى هذه المرحلة بدأ استخدام الماكينات التى تدار بقوة البخار مما ساعد فى زيادة الإنتاج الصناعى والزراعى وسرعة وسائل المواصلات . وأحدثت هذه التغيرات آثاراً اقتصادية واجتماعية كبيرة ، فأنهت حالة المجتمعات الإقطاعية المغلقة وفتحت الأبواب على مصراعيها لنمو التجارة الداخلية والخارجية معاً ، وأدت بالتدريج إلى زيادة أهمية رجال الصناعة والتجارة والمال على أهمية ملاك الأرض وأمراء المقاطعات . وكانت التطورات البطيئة التى حدثت منذ بداية عصر التنوير فى القرن الخامس عشر – الذى فتح الطريق لنمو المعرفة العلمية القائمة على التجربة – أدت الى زيادة الناتج من محصول الأرض الزراعية وبداية عصر الدراسات العلمية التى صحبتها تجارب معملية ، وأدت بدورها إلى زيادة التقدم التكنولوجى القائم على استخدام المعارف العلمية لتطوير وسائل الإنتاج .

وكان من أهم آثار الثورة الصناعية نقل مركز تجمع السكان من الريف إلى المدن الصناعية الجديدة عندما تحولت بعض القرى الصغيرة إلى مدن

عامرة بالسكان ، وأدت زيادة الإنتاج والحاجة الى الأيدى العاملة إلى زيادة كبيرة فى عدد السكان . كما تغير الوضع الاجتماعى للمرأة - بسبب استعدادها لقبول معاش أقل مما يرتضيه الرجل - فخرجت من المنزل وأصبحت تعمل وتحصل على دخل خاص بها جعلها فى حالة من الاستقلال وعدم التبعية للرجل . وكان انفتاح مجتمع القرية على السوق الخارجية من أهم العوامل التى ساعدت فى زيادة إنتاج المحصولات الزراعية ، وأصبح رجال المال على استعداد لتمويل عمليات الإنتاج لما يحصلون عليه من فوائد نتيجة لهذه العملية . كما بدأت ثورة المواصلات والاتصالات منذ بداية الثورة الصناعية ، عندما تم استخدام قوة البخار فى تسيير السفن والقطارات ، وأصبح من اليسير نقل الناس والبضائع بسرعة أكثر وسهولة أكبر بعد أن كانت الخيول والمركبات والمراكب الشراعية هى وسيلة النقل الرئيسية . وأصبح اليهود الإشكناز يسيطرون على أمور الطائفة اليهودية فى إنجلترا منذ نهاية القرن الثامن عشر بعد أن ازدادوا عدداً ومالاً ونفوذاً ، وتم تعيين أحد أحبارهم - سولومون هيرشل - فى وظيفة الحبر الأكبر فى معبد اليهود بلندن عام ١٨٠٢ وهكذا أصبح الطريق معبّداً أمام الطائفة اليهودية فى عاصمة العالم خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لأن تلعب دوراً مهماً فى الحصول على تأييد السلطات البريطانية لخطتها القاضية بإقامة وطن قومى لليهود .

كارل ماركس بين المسألة اليهودية والخلاص الشيوعي

كان للتغير الاجتماعى الذى حدث فى المجتمعات الأوروبية خلال القرن الثامن عشر ، نتيجة لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية المتعلقة بحقوق الإنسان والمساواة بين المواطنين ، أثر كبير فى الأجيال التالية من شباب اليهود وأصبح فى استطاعة العديد منهم دراسة العلوم المدنية فى المدارس الحكومية والتعرف للمرة الأولى على المدارس الفلسفية التى حرمتهم عزلتهم من معرفتها . كما كان لنمو المجتمع الرأسمالى الذى يعتمد على النقود ويقوم على أساس تحقيق الربح ، أثره الكبير فى حصول عدد كبير من اليهود - وكانوا أول من قاموا بعمليات التسليف والاستثمار المالى بالربا - على مراكز مهمة فى المجتمعات الاقتصادية التى ظهرت فى أعقاب الثورة الصناعية .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها مفكرون من اليهود يتوجهون بفكرهم إلى المجتمع الإنسانى ككل ، وليس إلى الجماعات اليهودية

وحدها . وشهد المجتمع الغربى ظهور عدد من المفكرين من أمثال كارل ماركس وسيجموند فرويد ، كان لفكرهم أثر فى كل الشعوب وليس فى اليهود فقط . والظاهرة الغريبة أن معظم هؤلاء المفكرين كانوا فى مذاهبهم الفكرية ثائرين على أصلهم اليهودى ، وإن لم يجعلهم هذا ينتمون إلى أى جماعة أخرى . فهم فى ثورتهم على التعاليم اليهودية رفضوا التعاليم الدينية بشكل عام ، وأصبحوا من الملحدين الذين يؤمنون بالعقل والعالم المادى ويرفضون قبول الوجود الروحى الميتافيزيقى .

من هؤلاء المفكرين اليهود كان كارل ماركس الذى حول فكرة الخلاص على يد المسيح الذى ما زال اليهود ينتظرون مجيئه – وينتظر المسيحيون عودته ليفتح لهم الطريق إلى الجنة – إلى فكرة الخلاص الاجتماعى عن طريق تحقيق المجتمع الشيوعى على هذه الأرض . ومن أجل تحقيق هذا الخلاص الاجتماعى اشترط ماركس ليس فقط القضاء على العلاقة بين الدولة والدين بشكل عام ، ولكن القضاءعلى اليهودية بشكل خاص . ولا شك فى أن شعور العداء الذى كان يسيطر على ماركس كان ناتجا فى أساسه من عدائه للشخصية اليهودية التى تعتبر أن تجميع المال فقط – وبأى وسيلة – هو جوهر أهدافها فى الحياة وهو رأى هذه النماذج من البشر تخرج من جحورها للمرة الأولى لتسيطر على كيان الاقتصاد الرأسمالى من أعلاه ، مما جعله يبالغ فى عدائه لأصحاب الأموال .

ولد كارل ماركس – وهو فيلسوف سياسى المانى مؤسس الاشتراكية العلمية عرف مذهبه باسم الماركسية وكان أساسا للشيوعية الحديثة – لعائلة يهودية من الطبقة الوسطى ، فى الخامس من آيار (مايو) ١٨١٨ فى مدينة تربير بمنطقة الراين البروسية (غربى المانيا) . وكان أباه هينريخ يعمل محاميا بمحكمة النقض ثم موظفاً حكومياً ، وقد اعتنق المسيحية فى سبيل الحصول على النجاح الاجتماعى . وعندما بلغ كارل السادسة من عمره . قام أبوه بعمادة أولاده الثمانية فى الكنيسة اللوثرية . وكان أجداد كارل ماركس لأبيه – لأجيال عدة – من الأحبار التلموديين ، بينما شغل عمه مركز الحبر الأكبر لمدينة ترير . كما كان جده لأمه من أحبار هولندا . وبسبب أصله اليهودى أصبح كارل خارجاً على التركيبة الاجتماعية التى لم يتمكن من الذوبان بها ، وكذلك كانت غالبية تلاميذه – سواء فى المانيا أو فى روسيا – من أصل يهودى .

وهكذا فإن الصبى كارل ماركس لم يتابع الدراسة اليهودية وإنما درس التاريخ والفلسفة والقانون فى جامعتى بون وبرلين ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره . وتأثر فى فترة دراسته فى برلين بفلسفة هيجل وانضم إلى حركة الهيجليين إلا أنه كان يعترض على فلسفته السياسية . وكان المفكر الألمانى هيجل الذى عاصر الثورة الفرنسية – ويعتبر من أهم الفلاسفة المحدثين – حاول العثور

على إجابات جديدة للقضايا التى واجهتها أوروبا المسيحية بسبب هذه الثورة ، ما هو مصير الإنسان وما هو معنى حياته ؟ وتوصل إلى أن الروح هى جوهر الوجود الحقيقى ، وأن العالم يعى نفسه ويبدو متحركاً نتيجة لوجود صراع فى داخله بين قوتين متضادتين ، هما الوجود والعدم . ومع أن ماركس بنى نظريته على أساس من صراع الأضداد ، إلا أنه رفض فكرة الجوهر الروحى الذى قال به أستاذه ، وجعل الهدف الأسمى هو تحقيق الخلاص فى الحياة الدنيا . وكان الخلاص الماركسى يتمثل فى العمل على إقامة نظام اقتصادى واجتماعى يحقق الإشباع لاحتياجات كل المواطنين ، فلا يكون هناك غنى وفقير ، ولا سيد وخادم . وتعليقاً على دوره فى تغيير فلسفة هيجل ، قال كارل ماركس إنه وجد هيجل واقفاً على رأسه فأوقفه على قدميه ، مشيراً إلى اهتمام هيجل بالصراع فى الفكر والروح الذى نقله ماركس إلى صراع طبقى داخل المجتمع .

وقفت آراء ماركس عقبة فى طريق حصوله على وظيفة للتدريس فاتجه إلى العمل بالصحافة، وأصبح رئيساً لتحرير مجلة « راينسيخ زايتنج » الليبرالية بعد فترة قصيرة من اشتغاله بها إلا أن السلطات الألمانية سرعان ما أوقفت المجلة فسافر ماركس إلى باريس وفى فرنسا انضم للجماعات السياسية الاشتراكية كما التقى بفريدريك إنجلز الذى أصبح رفيق عمره بعد ذلك وتولى الإنفاق عليه هو وعائلته .

وفي عام ١٨٤٧ انضم ماركس وإنجلز إلى العصبة الشيوعية - وهي جماعة دولية للاتحادات العمالية كان مقرها في لندن - واشتركا في كتابة الإعلان الشيوعي الأول الذي صدر في العام التالي ، في فترة كانت أوروبا تمر بمرحلة ثورية . واعتبر الإعلان أن تاريخ المجتمعات البشرية يمثل تاريخ الصراع بين السادة والعبيد وأن جهاز الدولة هو الذي يقوم بإخضاع العمال لصالح أصحاب الأموال ،كما وضع برنامجاً سياسياً واقتصادياً يهدف إلى القضاء على النظام الرأسمالي ، وجاءت نهاية الإعلان على شكل دعوة موجهة إلى العمال في جميع أنحاء العالم « ليس للبروليتاريا سوى القيود لتفقدها ، ولهم العالم ليفوزوا به . أيها العمال في جميع البلاد ، اتحدوا » .

أمضى ماركس بقية عمره في مكتبة المتحف البريطاني بلندن محاولاً تقديم تحليل للنظام الرأسمالي ومؤكداً حتمية سقوط هذاالنظام والوصول إلى مجتمع خال من الطبقات . وفي خلال هذه الفترة عمل مراسلاً في لندن لجريدة « نيويورك ديلي تريبيون » . ولم يتمكن من إتمام أهم أعماله إذ صدر الجزء الأول من « داس كابيتال » (رأس المال) عام ١٨٦٧ ولم يتم نشر الجزءين التاليين إلا بعد موته بست سنوات عندما قام إنجلز باستكمالهما . كما أوصى إنجلز بكل أملاكه إلى أولاد صديقه ماركس .

وكانت الأفكار الاشتراكية قد انتشرت فى تلك الحقبة من الزمن بسبب المعاناة الشديدة التى عاشتها طبقة العمال فى السنوات الأولى للثورة الصناعية ، وأصبحت تعاليم ماركس دستور الحركة الشيوعية فى جميع أنحاء العالم خلال القرن العشرين . وتقوم نظرية ماركس فى جوهرها على أن القيمة الاقتصادية الوحيدة تأتى نتيجة للعمل ، أما رأسمال المستثمر فهو عاطل وعاجز عن الإنتاج . ومع هذا فهو يحقق لصاحبه دخلاً أكبر بعد بيع السلعة . وكان ماركس يكره نفسه بسبب أصله اليهودى ، وبدا عليه منذ صغره ارتباط وثيق بالثقافة الألمانية كما كانت زوجته تنتمى إلى عائلة ألمانية أرستقراطية .

أول ما كتبه فى فرنسا كان مقالة بعنوان « عن المسألة اليهودية » انتقد فيها تفسير برونو باور – المفكر الألمانى الهيجلى – فى الموضوع نفسه . فقد ذهب باور إلى أن المشكلة اليهودية هى مشكلة دينية فى جوهرها لا يمكن حلها إلا إذا تخلى اليهود عن اعتقاداتهم وذابوا فى المجتمع الذى يعيشون فيه : « فطالما أن الفرد يشعر بأنه يهودى ، فإن الطبيعة المقيدة التى تجعله يهودياً سوف تتغلب على طبيعته الإنسانية التى تربط بينه كإنسان وبين باقى البشر ، وسوف تباعد بينه وبين غير اليهود » .

أما ماركس فلم يناقش اليهودية من حيث كونها اعتقاداً دينياً وإنما من حيث كونها نشاطاً اقتصادياً واجتماعياً واعتبر أن اليهودية ما هي إلا بورجوازية رأس المال : « في مسألة قدرة اليهودى على التحرر يصبح السؤال ، ما هو العامل الاجتماعى الذى يجب التغلب عليه حتى يمكن إلغاء اليهودية ؟.. دعونا نناقش وضع اليهودى العادى وليس يهودى يوم السبت (أى اليهودى المتدين) كما يفعل باور ، يهودى الحياة اليومية . دعونا لا ننظر إلى سر اليهودى في دينه ، ولكن دعونا ننظر إلى سر دينه في حياة اليهودى الحقيقى . ما هو الشئ الدنيوى فى اليهودية ؟ الحاجة العملية والمصلحة الشخصية . ما هو الدين الدنيوى لليهودى ؟ السمسرة . وما هو إلهه الدنيوى ؟ النقود . عندما يتم التحرر من السمسرة والنقود وبالتالى التحرر من اليهودية الحقيقية ، سيكون هو تحرر عصرنا ، وإذا ما قامت منظمة اجتماعية بإلغاء شروط السمسرة وبالتالى إمكانية السمسرة ، فإن هذا سيجعل وجود اليهودى مستحيلاً . سيتبدد ضميره الدينى مثل الضباب الخفيف ، وسط الهواء الحقيقى والضرورى للمجتمع . ومن الناحية الأخرى إذا ما أدرك اليهودى بأن طبيعته العملية هذه عقيمة وعمل على إلغائها ، فإنه سيخرج نفسه من مسيرته السابقة ويعمل على تحرير الإنسان ويتحول ليواجه أكبر تعبير عملى عن الغرابة الذاتية ، ولذلك فنحن نجد فى اليهودية عاملاً عاماً معادياً للمجتمع ، وهو عنصر قد وصل

إلى مستواه العالى الحالى خلال التطور التاريخى - حيث شارك اليهود بحماس فى هذاالاتجاه الضار - والذى يجب أن يبدأ بالتفكك ، وفى التحليل النهائى فإن تحرر اليهود يكون هو تحرر الإنسانية من اليهودية » .

ويمضى ماركس الذى ينظر إلى اليهودية باعتبارها نوعاً من السلوك الاجتماعى ازداد انتشاره مع نمو المجتمع الرأسمالى : « ولقد حرر اليهودى نفسه بالفعل ، بطريقة يهودية . وعلى سبيل المثال فإن يهودى فيينا ... هو الذى يقرر مصير كل الإمبراطورية (النمسوية) بقوته المالية . واليهودى الذى قد لا تكون له حقوق فى أصغر ولاية المانية ، هو الذى يقرر مصير أوروبا . وبينما ترفض الاتحادات والنقابات قبول اليهود أعضاء بها ... فإن جرأة الصناعة (التى تسمح لهم باستثمار أموالهم فيها) تسخر من عناد أجهزة العصور الوسطى ... **ولقد حرر اليهودى نفسه ليس لأنــه حصــل على القوة المالية فقط ، وانما لأن النقود سواء عن طريقه أو عن غير طريقه .. أصبحت قوة عالمية ، وأصبحت الطبيعة اليهودية العملية هى الطبيعة العملية للأمم المسيحية . ولقد حرر اليهود أنفسهم بقدر ما أصبح المسيحيون يهوداً** .. ولقد أصبحت سيطرة اليهودية العملية على العالم المسيحى فى أميركا الشمالية فى تعبيرها الواضح والطبيعى ، أن تتحول عملية التبشير بالإنجيل نفسها - وكذلك الدعوة المسيحية - فتصبح مجالاً للتجارة حيث يتعامل التاجر المفلس فى الإنجيل تماما مثلما

يذهب الكاهن الذى أصبح ثرياً للتعاملات التجارية » . وينهى كارل ماركس بحثه عن المسألة اليهودية مطالباً بإلغائها كظاهرة اجتماعية : « وعندما ينجح المجتمع فى إلغاء الصيغة الجوهرية لليهودية - أى السمسرة وشروط وجودها - سيصبح وجود اليهودى مستحيلاً .. وعلى هذا فإن التحرر الاجتماعى لليهودى سيكون هو تحرر المجتمع من اليهودية » .

كان كارل ماركس هو ملهم القادة البلشفيك الذين قاموا بالثورة فى روسيا ١٩١٧ وأطاحوا بالقيصرية ، وأقاموا مكانها النظام الشيوعى السوفيتى . ولكن سقوط هذا النظام وتحلله الكامل بعدما يزيد على سبعين عاماً من قيامه طرح أسئلة عدة فى أساس الفكر الماركسى الذى قام عليه. فمع أن ماركس وافق على أن صراع الأضداد هو عملية مستمرة ، إلا أنه حاول إقامة نظريته الخاصة بالمجتمع الشيوعى الفاضل على أساس أنه مجتمع خال من الصراع ، ثم إن استبعاد رأس المال من عملية الإنتاج أدى إلى سيطرة البيروقراطية الحكومية وعدم الاهتمام بتلبية احتياجات الجماهير فى حياتها اليومية عند تنظيم الإنتاج .

والغريب فى الأمر أنه على رغم أن غالبية قادة الحركة الصهيونية - وهى التى تعبّر عن اليهودية السياسية - وإن كانوا من الماركسيين ، إلا

أنهم وإن رفضوا الاعتقادات الدينية اليهودية ، أقاموا حركتهم على جوهر واحد ألا وهو عزل اليهود فى وطن خاص بهم عن باقى البشر . وعلى وعلى ذلك فإن أتباع ماركس اتبعوا عكس الطريق الذى نادى به أستاذهم ، فبدلاً من القضاء على اليهودية السياسية والإبقاء على الاعتقاد الدينى ، عملوا على إلغاء الاعتقادات الدينية مع الإبقاء على الشخصية اليهودية ، بل وأكدوا ضرورة عزلتها .

أرض الميعاد ... هل هي فلسطين
أم الولايات المتحدة الأمركية ؟

قبل سقوط النظام السوفيتى - منذ سنوات - كانت الحكومة الإسرائيلية تطالب بالضغط على السلطة السوفيتية لمنح يهود روسيا حق الهجرة إلى إسرائيل التى تعتبر نفسها الوطن الطبيعى لكل اليهود . وكان النظام الشمولى السوفيتى لا يسمح للمواطنين بمغادرة البلاد إلا بتصريح خاص . ومع أن يهود الولايات المتحدة الأمريكية - الذين يزيد عددهم عن الخمسة ملايين - لا تقف أمام تحركاتهم أى عقبات مماثلة إلا أنهم لا يمارسون هذه الحرية فى الهجرة إلى إسرائيل . وإذا نظرنا إلى حركة الهجرة بين إسرائيل والولايات المتحدة منذ قيام الدولة اليهودية ، لوجدنا أن عدد اليهود الذين هاجروا من إسرائيل إلى أمريكا يزيد على عدد اليهود الذين هاجروا من أمريكا إلى إسرائيل ويرجع تاريخ هجرة اليهود إلى أمريكا إلى اللحظة الأولى التى تم فيها اكتشاف هذه الأرض الجديدة ، فقد اصطحب كريستوفر كولومبوس بعض اليهود الإسپان والبرتغال من المارانو

الذين قبلوا العمادة المسيحية – بعد سقوط دولة الأندلس – عند اكتشافه للقارة الأمريكية فى أواخر القرن الخامس عشر . وخلال المئة والخمسين سنة الأولى بعد اكتشاف الأرض الجديدة ، جرت هجرة المارانو إلى المناطق التى وقعت تحت سيطرة إسبانيا والبرتغال فى أمريكا الجنوبية . وجاءت الهجرة الأولى إلى أمريكا الشمالية بعد ذلك خلال القرن السابع عشر ، وإن كانت الغالبية العظمى لم تأت إلا فى الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر ومنتصف القرن الحالى . وكانت أول جماعة يهودية تستقر بأمريكا الشمالية – وتتكون من ٢٣ من المارانو – هى التى جاءت من البرازيل عام ١٦٥٤ وسكنت مدينة نيويورك التى كانت تعرف فى ذلك الوقت باسم « نيو أمستردام » ، إذ كانت ما تزال تقع تحت سيطرة الهولنديين وكانت غالبية المهاجرين الأوائل من المارانو ، وهو الاسم الذى أطلق على اليهود السفارديم الذين عاشوا فى الأراضى الإسبانية ، وعند تخييرهم بين التحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد – على أثر سقوط دولة الأندلس – قبلوا العمادة المسيحية .

وفى المرحلة الأولى كان عدد اليهود حوالى ثلاثة آلاف من مجموع السكان الذى بلغ أربعة ملايين . ولم يمض قرن من الزمان على وصول الجماعة الأولى إلا وكانت هناك ست جماعات من السفارديم فى منطقة الاحتلال البريطانى بأمريكا الشمالية وكندا . وسرعان ما وصلت جماعات

الإشكناز من لندن وأمستردام . ويمكن تقسيم مراحل هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة إلى ثلاث موجات للهجرة كانت الموجة الأولى تتكون من السفارديم القادمين من إسبانيا والبرتغال ، وجاءت الهجرة الثانية - التي كان مركز استقرارها في نيو بورت التابعة لرود آيلاند - بعد ١٨٤٠ باليهود الألمان ، ثم جاءت هجرة الغالبية العظمى من اليهود الإشكناز من شرق أوروبا منذ ١٨٨٠ .

وعند منتصف القرن السابع عشر كانت غالبية يهود العالم تعيش في منطقة وسط وشرقي أوروبا ، ثم بدءوا في الهجرة شرقاً إلى روسيا وأوكرانيا وبولندا ورومانيا ، وغربا إلى هولندا وبلچيكا والمانيا وفرنسا وإنجلترا ، وعبر الأطلسي إلى أمريكا ، ومما شجع اليهود على الهجرة إلى أمريكا ، أنه في هذه الأرض الجديدة لم يكن هناك من يحاول اضطهادهم أو فرض القيود عليهم ، وأصبحوا يتمتعون بدرجة كبيرة من الحرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، منذ اللحظة الأولى لوصولهم إليها . حتى إنه عندما قامت حرب الاستقلال الأمريكية - وكان عدد اليهود قد بلغ الألفين - سمح لهم بالاشتراك مع باقي الأمريكيين في الأعمال العسكرية .

وقامت حرب الاستقلال - في الولايات الثلاث عشرة الواقعة على المحيط الأطلسي - ضد قوات الاحتلال البريطانية عام ١٧٧٥ ، وانتهت بإعلان الاستقلال وتكوين الولايات المتحدة الأمريكية . وعندما صدرت

لائحة فرچينيا لتنظيم الحرية الدينية عام ١٧٨٥ ، كانت أول قانون فى تاريخ اليهود يمنحهم المساواة الكاملة مع باقى الطوائف ، وهو ما أكده الدستور الأمريكى بعد ذلك عندما منع اعتبار شرط الدين عند التقدم إلى الوظائف الحكومية . ونتيجة لهذه المعاملة الطيبة هرب اليهود الألمان الذين تعرضوا للاضطهاد- خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر - وهاجروا إلى أمريكا ، وانتشروا فى معظم الولايات . وعندما بدأ جنون البحث عن الذهب فى المناطق الواقعة على ساحل المحيط الهادى ، اشترك اليهود فى المسيرة مع العديد من الأمريكيين غرباً إلى ولاية كاليفورنيا ، وسرعان ما انتشر اليهود الألمان بسرعة فى مختلف الولايات وتفاعلوا بسهولة مع المجتمع الامريكى وأصبحوا متحررين فى اتجاهاتهم الثقافية والدينية .

وفى أمريكا - بسبب عدم تعرض اليهود للاضطهاد - انتشرت حركات دينية ليبرالية مثل « اليهودية الإصلاحية » . وكانت هذه أول حركة اصلاحية بدأت فى المانيا كرد فعل للتغير الذى حدث فى المجتمع الألمانى - بعد الثورة الفرنسية . فمع التحولات التى حدثت فى نظرة المجتمع الأوروبى إلى الأقليات الموجودة بداخله ، وإقدام الحكومات على منحهم حقوق المساواة الاجتماعية والسياسية ، ظهرت الحركة الإصلاحية داخل الطوائف اليهودية التى تطالب بالانفتاح على المجتمع والتخلص من طريقة السلوك الانعزالى القديمة . وعملت هذه الحركة -

التى رفضت قبول أبدية القوانين والصيغ الدينية – على تغيير اليهودية – سواء فى شكل طقوس العبادة أو فى الشرائع نفسها . وكان بعض الرجال – وهم من غير الأحبار – لجئوا إلى تغيير شكل العبادة التى جعلوها تلقى بلغة البلد الذى يعيشون فيه بدلاً من العبرية ، وكذلك الغناء الجماعى مع مصاحبة الأورغون . وبالطبع فإنهم فى هذا كانوا يحاكون قداس يوم الأحد المسيحى . وعمدوا كذلك إلى التخفيف من القيود المفروضة على اليهود يوم السبت (حيث لم يكن يسمح لهم القيام بأى عمل) ، وشروط الطلاق إذ جعلوا من حق الزوجة المطالبة بالطلاق فى بعض الأحوال . كما أنهم أسقطوا من صلواتهم الجزء الذى كان يعبّر عن انتظارهم العودة إلى « صهيون » وإعادة بناء معبد القدس .

وسرعان ما انضم بعض الأحبار الذين اعتبروا الديانة اليهودية فى حالة تغير مستمر إلى هذه الحركة ، فهناك اختلافات بين يهودية التلمود والأحبار وبين ما كانت عليه يهودية التوراة والكهنة ، وعلى هذا يكون من الممكن – فى رأيهم – إحداث أى تغييرات جديدة يقتضيها العصر الحديث . وفى مواجهة الحركة الإصلاحية – وإلى جانب اليهودية الإرثونكسية – ظهرت حركة أخرى عرفت باسم اليهودية المحافظة . بدأت كرد فعل للحركة الإصلاحية ، وانتهت إلى حل وسط بينها وبين الأورثوذكسية ، فهى قبلت إلغاء بعض قيود يوم السبت ، ووافقت على

إحداث بعض التغييرات فى قوانين الطلاق ، وإن كانت احتفظت بقدسية التلمود وباستعمال اللغة العبرية فى طقوس العبادة .

وعندما قامت الحرب الأهلية التى بدأت عام ١٨٦١ واستمرت أربع سنوات بين اتحاد الولايات الشمالية وولايات الجنوب التى انفصلت عن الاتحاد ، كان عدد اليهود فى الولايات المتحدة بلغ مئة وخمسين ألفاً ، وأدى النمو الاقتصادى فى المناطق الشمالية إلى ثراء عدد كبير منهم . إلا أن السبب الذى قفز بعدد المهاجرين اليهود إلى القمة كان المشاكل التى تعرض لها يهود روسيا على أثر مقتل القيصر . إذ وصل عدد المهاجرين اليهود - فى الفترة بين ١٨٨١ و ١٩٣٩ - إلى مايزيد على ٢,٢٥ مليون مهاجر . ووصل عدد اليهود فى أمريكا عند منتصف القرن الحالى إلى خمسة ملايين .

وأدت هجرة اليهود الروس - الذين أصبحوا يمثلون الأغلبية الساحقة لليهود فى أمريكا - إلى انتشار الحركة الصهيونية هناك . وبينما استطاب المهاجرون الجدد حياتهم على الأرض الأمريكية ، إلا أنهم استمروا فى العمل على إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وإن لم يكن فى نيتهم الهجرة إليه . واستخدم اليهود الأمريكيون نفوذهم - بل ونفوذ الإدارة نفسها - فى مساعدة اليهود فى كل أنحاء العالم ، وكان لنفوذ يهود

أمريكا أثره الكبير فى حصول الحركة الصهيونية على وعد بلفور ، ثم فى صياغة شروط السلام فى مؤتمر باريس عند نهاية الحرب العالمية عندما تقرر وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية .

تأسست المنظمة الصهيونية في مؤتمر دعا إليه تيودور هيرتزل - وهو من أصل روسى كان يعمل صحافياً فى ڤيينا - بمدينه بازل السويسرية عام ١٨٩٧ . ومع أن هيرتزل كان يؤمن فى بداية حياته بضرورة ذوبان اليهود في المجتمعات التى يعيشون بها ، إلا أنه تراجع عن هذا الرأى وأصبح يعتقد بضرورة تكوين وطن قومى يعيش فيه اليهود وحدهم . ومع ذلك لم يطالب بتكوين الوطن القومى فى فلسطين ، وكان يبحث عن أرض بكر لا يسكنها أحد مثل الأرجنتين فى ذلك الوقت ، إلا أنه بعد قيام الحرب العالمية الأولى وانعزال قيادة الحركة الصهيونية بشرقى أوروبا عن الغرب، قام حاييم وايزمان - ولم يكن له أى منصب بالمنظمة - بالحصول على أهم اعتراف من الحكومة البريطانية لصالح الحركة الصهيونية . وكان وايزمان هاجر من روسيا ليعمل فى جامعة مانشستر البريطانية عام ١٩٠٦ ، وتمكن من إقامة علاقات صداقة مع بعض رجال السياسة البريطانيين لفكرة إقامة وطن قومى لليهود في فلسطين ، التى كانت ماتزال تحت السيطرة العثمانية . وكللت محاولات وايزمان بالنجاح عندما أصبح اللورد بلفور وزيراً للخارجية البريطانية - فى وقت كانت

تركيا انضمت للحرب العالمية الأولى إلى جانب دول المحور - وكانت بريطانيا تستعد لغزو فلسطين.

صدر وعد بلفور على شكل رسالة وجهها آرثر جيمس بلفور - وزير الخارجية البريطاني - إلى لورد روتشايلد لتبليغها للمنظمة الصهيونية ، جاء فيها : « تنظر حكومة صاحب الجلالة بعطف على تكوين وطن قومي للشعب اليهودى في فلسطين ، وسوف تبذل جهدها لتحقيق هذا الهدف » . صدر فى لندن فى أوائل تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٧ ، بعد أيام من قيام الثورة البلشفية فى روسيا ، بينما كانت الحرب العالمية الأولى ماتزال فى أوجها. وعلى رغم التزام الحكومة البريطانية بالعمل على إقامة الوطن اليهودى فى فلسطين ، إلا أن الفضل الأكبر يعود الى يهود روسيا من الإشكناز ، سواء من بقى منهم فى الاتحاد السوفيتى أو من هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى تحويل هذا الحلم إلى حقيقة .

المشكلة اليهودية بالنسبة إلي هتلر

هي الجنس اليهودي نفسه !

ظهرت الحركة التى اصطلح على تسميتها بـ « معاداة السامية » فى أوروبا عند نهاية القرن التاسع عشر ، بعد مرور قرن من الزمان على قيام الثورة الفرنسية وإعلان تحرير اليهود . فبينما كان المصلحون الأوروبيون يهدفون من إصلاح حال الأقلية اليهودية ورفع الاضطهاد عنها ؛ مساعدة اليهود فى الخروج من عزلتهم والاندماج فى المجتمع ليصبحوا مواطنين فيه ، إذا بالقيادة السياسية الصهيونية الجديدة تعلن أن اليهود غرباء عن بلدانهم ، وهم ينتمون لوطن آخر يعملون على إقامته فى فلسطين . ولا شك أن الدعوة الصهيونية كان لها أثر كبير فى استمرار شعور اليهود بالغربة فى مجتمعاتهم ، كما أنها باعدت بينهم وبين المفكرين الأوروبيين .

وأول ماظهر تعبير « العداء للسامية » فى المانيا عام ١٨٧٩ عندما استعمله الكاتب الألمانى وليهلم مار للدلالة على الحركة المعادية لليهود

التى كانت انتشرت فى أوروبا آنذاك . وبالطبع فإن العداء لليهود لايعنى العداء للسامية ، حيث إن الغالبية العظمى من اليهود الآن لا تنتمى إلى الجنس السامى ، وإنما إلى الجنس القوقازى الإشكنازى . وأصل كلمة « السامية » هم أبناء سام بن نوح . وكان انتشار مبادئ الثورة الفرنسية منذ نهاية القرن الثامن عشر أدى إلى حركة التحرر الفكرى الأوروبى والمطالبة بإلغاء التفرقة بين المواطنين التى تقوم على أساس اختلاف الاعتقادات الدينية أو الأصل السلالى . ونتج عن هذا تغير كبير فى حياة اليهود الذين استفادوا من نظام التعليم الحكومى فى رفع مستواهم الثقافى كما استفادوا من إلغاء القيود التى كانت مفروضة على نشاطاتهم الاجتماعية والسياسية لتحقيق مكاسب كبيرة فى هذه المجالات . وبدلا من ذوبان اليهود فى المجتمع - كما أراد المصلحون - فقد استمروا يعملون كجماعة مستقلة تهدف إلى تحسين وضعها الخاص داخل هذا المجتمع . وظلت تصرفات اليهود المالية تشير إلى رغبتهم فى تحقيق مكاسب خاصة بهم ولو كان هذا على حساب المجتمع الذى يعيشون فيه ، وبينما كانت الحركة الصهيونية العالمية تؤكد أن اليهود يمثلون شعباً خاصاً ، وأنها عملت على إقامة وطن لهذا الشعب على الأرض الفلسطينية ، **بدت تصرفات الجماعات اليهودية المنتشرة فى البلدان الغربية وكأنها لا تعبأ بمصير الملايين من العمال الذى أصبحوا تحت رحمة حركة**

الاستثمارات المالية فى الأسواق والبورصات ، بقدر اهتمامها بتحقيق أكبر عائد من الربح الشخصى . فقد كان من مظاهر نمو المجتمع الصناعى الرأسمالى فى بداية طوره - وكان لليهود بسبب نشاطاتهم المصرفية والتجارية السيطرة الغالبة فى هذا المجال - أن يمر بمراحل أزمات وتهديد بالإفلاس والبطالة ، بل وبقيام الحروب بين الدول الصناعية فى بعض الأحوال . وفى هذه الظروف ظهر وكأن اليهود لم يهتموا إلا بتحقيق مصالحهم الشخصية .

إزاء هذا الوضع - وبدلاً من محاولة معالجة الموضوع على أساس اجتماعى أو اقتصادى - انتشرت موجة جديدة فى الدول الأوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر -خصوصاً فى النمسا والمانيا - معادية لليهود الذين أصبحوا يعتبرون من أهم أسباب مشاكل المجتمع الجديد . وأخذت هذه الموجة موقفاً عنصرياً إذ أنها لم تعاد اليهود على أنهم يمثلون طائفة دينية ذات اعتقادات مختلفة ، أو طائفة اجتماعية لها سلوك ضار ، وإنما على أساس أنهم ينتمون إلى عنصر مختلف غير العنصر الآرى الذى تنتمى إليه غالبية الشعوب الألمانية . فساد الاعتقاد بأن اليهود هم أشرار بطبيعتهم ، وهدفهم النهائى هو القضاء على الجنس الآرى والسيطرة على العالم . ولتحقيق هذا الهدف فإن اليهود - بحسب هذا الاعتقاد - يهدفون إلى السيطرة على المراكز المهمة فى الحياة السياسية عن طريق

استخدامهم نفوذهم المالى ، فيعملون على إشعال الحروب والتحريض على الثورات التى كانت الحركة الثورية الماركسية من أهمها . وعلى هذا فإن هتلر - عندما أصبح مسئولاً عن الحكم فى ألمانيا منذ ١٩٣٣ - عمل على إبعاد اليهود تماماً عن الحياة العامة فى البلاد .

يقول هتلر أنه أصبح معادياً لليهود عندما اكتشف دورهم فى تجارة الرقيق الأبيض ونفوذهم فى صحافة ڤيينا التى - فى رأيه - كانت تدعو إلى سياسة معادية للقومية الألمانية . وكذلك دورهم فى الحركة الثورية البلشفية التى انتشرت فى أوروبا آنذاك . وفى الحقيقة كان هناك عدد كبير من اليهود فى قيادة الحركة الشيوعية التى كانت تعمل على سيطرة البلشفية على ألمانيا . وكانت فكرة هتلر عن المسألة اليهودية أنها مظهر من مظاهر صراع الأجناس للسيطرة على العالم ، واليهود فى هذا الصراع إنما يمثلون عناصر الشر الكامل فى مواجهة الجنس الآرى ، ولذلك يجب التخلص منهم .

يكتب هتلرعن رأيه فى المشكلة اليهودية فى مذكراته التى نشرت عام ١٩٢٤ بعنوان « كفاحى » : « عندما أدافع عن نفسى فى مواجهة اليهود فأنا إنما أعمل من أجل الرب » . وهو يرفض فكرة تعميد اليهود لخلاصهم إذ يرى أن اليهودية جنس وليست اعتقاداً دينياً .

ويظهر من مذكرات هتلر فى المرحلة الأولى لحياته السياسية - كتبها أوتو، أحد مساعديه المقربين منه ، قبل موته فى أحد معسكرات الأسر البريطانية ونشرتها جامعة يل الأمريكية بإشراف هنرى تيرنر - مدى شعور العداء الذى كان الزعيم النازى يكنّه لليهود : « ما هى الطبيعة الحقيقية للحيـاة الإنعزالية الغريبة التى يعيشها اليهود ؟ ذلك أنهم يعيشون حياة غريبة . فهم لا يعيشون - كباقى الشعوب - داخل الحدود الواضحة للبلاد ، وإنما هم يعيشون داخل أمم أخرى ، نباتات غريبة بين النباتات الأخرى . وهذه الحقيقة لا تثير الاعتراض فى حد ذاتها ، بل على العكس فإن تنوع النباتات ينفع التربة أكثر ، فهو يحيى الصورة ويزيد الإنتاج .. وبين الحيوانات فإن الأقوى والأكثر صحة يكون أقدر على الاستمرار والكفاح من أجل الحياة. وفى خلال هذا المجهود - بالطبع - يحدث أن واحداً يلتهم الآخر .. يوجد فى عالم النبات وعالم الحيوان كائنات نسميها طفيلية .

ومن طبيعة الطفيليات أنها لا تستخدم القوة الشخصية مثل الآخرين للحصول على الغذاء ، فإن قوتها الأساسية ... هى أن تعمل على استخدام عمل الآخرين من أجل أن تحيا هى ، على قدر الإمكان ، بدون عمل واليهود - فى عالم الإنسان - هم هذا النوع الطفيلى ... ».

ويضيف .. لقد استولى اليهود فى أمريكا تقريباً على كل المراكز المهمة وهم حققوا السيطرة والسلطة ، وتحقق أملهم بالفعل فى الولايات المتحدة ، كل الأمم ستخضع لكم ! فى هذه الحالة فإن اليهودى الأمريكى لن يترك أميركا وفى الواقع فإنه من الصعب علىّ تصور أن يكون اليهود جادين بخصوص دولة يهودية .. هل رأيت أبداً غابة تتكون فى كليتها من الطفيليات ؟ .. ليست فلسطين مكاناً لمستعمرة يهودية . فأين المناطق المحيطة التى يمكن أن يتم ابتلاعها ؟ ... لهذا فإن فكرة دولة يهودية هناك - فى توقعاتى - لها معنى مختلف .. بعد الحرب (العالمية الأولى) ظهر كما لو كان اليهود - بسبب الحرب - قد صارت لهم اليد العليا فى العالم الأبيض . وبدا الوقت مناسباً لظهور اليهود على أنهم الأسياد . وفى ألمانيا كما هو واضح الآن (فى أوائل الثلاثينات) ظاهر بشكل لا يمكن إنكاره . وبعد أن ينجح (اليهودى) فى الإمساك بالقيادة فى كل الأمم البيضاء ، سوف يصبح كل ما تبقى له - حتى يسيطر حقاً على العالم هو تأسيس مركز القيادة . وسيكون هذا هو الدولة اليهودية، وقبل هذا لن يكون لمثل هذه الدولة أى معنى ، بل سيكون خطأ . والحقيقة التى تثبت صحة تفكيرى أن هذه الدولة ستكون فى فلسطين أرض الميعاد ، المصدر الذى منه بدأت الهجرة - منذ ثلاثة أو أربعة آلاف عام - لغزو العالم . كما أنه يثبت أن كفاحنا ومهمتنا - التى

نعتقد نحن فقط أنها كفاح ومهمة من أجل المانيا - قد فهمها يهود العالم ، كما لو كانت موجهة ضدهم في مجموعهم ، ضد اليهود كيهود ولهذا فهم حيثما تكون لهم القوة ، فسوف يستخدمونها لشل عملنا ومنعه .

وأصبح هتلر رئيساً للحزب القومى الاشتراكى الألمانى وهو فى الواحد والثلاثين ثم رئيساً للدولة الألمانية منذ ١٩٣٢ . ولما كان هتلر يعتقد أن اليهود هم سبب كل المشاكل التى تعانى منها المانيا ، سواء من التهديد بالثورة البلشفية إلى الهزيمة فى الحرب العالمية ، فقد توصل إلى أن الحل الأمثل هو ترحيلهم خارج البلاد الألمانية ليجعل سياسة الحزب النازى تهدف إلى تخليص المانيا من سكانها اليهود- الذين بلغوا حوالى نصف المليون -عن طريق تهجيرهم خارج البلاد . ولكن بسبب عدم رغبة الغالبية العظمى من الدول الغربية فى استقبال اليهود الألمان فى بلادهم فى وقت زادت الأزمة الاقتصادية فى كل مكان ، لم يكتب للخطة النازية النجاح .

ومنذ اللحظة الأولى لتولى هتلر الحكم كانت سياسته تهدف إلى إبعاد اليهود عن المراكز المهمة سواء فى الجهاز الحكومى أو فى الكيان الاقتصادى كما تم منع أطفال اليهود من دخول المدارس الحكومية ، وتم

تسجيل أملاك اليهود وإجبارهم على بيع أعمالهم ومصانعهم للألمان .

وفى عام ١٩٣٥ أصدر هتلر ما عُرِفَ باسم « قوانين نورمبرج » التى نصت على منع اليهود من الحصول على الجنسية الألمانية أو التزاوج مع الجنس الألمانى . والغريب فى الأمر أن بعض دول شرق أوروبا أخذ السياسة الألمانية المعادية لليهود وطبّقها فى بلاده ، مثل المجر ورومانيا وبولندا ودول البلطيق استونيا وليتوانيا ولاتفيا بل تأثرت بهذه السياسة بلدان غربية كذلك مثل فرنسا وإيطاليا .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وإغلاق الحدود ، أصبحت هجرة اليهود أكثر صعوبة من ذى قبل ، بل أن عدد اليهود الخاضعين للحكومة النازية تزايد بشكل كبير بعد احتلال بولندا - التى كان يوجد فيها مليونان من اليهود - كما كان هناك نصف مليون موزعين فى بلدان غربى أوروبا . وأنشأ النازيون معسكرات فى بولندا لإقامة اليهود تمهيداً لترحيلهم ، وشكلوا لجاناً من اليهود أنفسهم لإدارة شئون حياتهم اليومية ، ومات منهم عدد كبير بسبب سوء التغذية وانتشار الأوبئة .

بدأت الحرب العالمية الثانية عندما اكتسح الجيش الألمانى بولندا عام ١٩٣٩ ، واستمر هتلر فى تحقيق انتصاراته العسكرية لمدة عامين فاحتل الدنمارك والنرويج وفرنسا ودول البلقان وجزءاً من شمال أفريقيا ، قبل أن

يهاجم الأراضى الروسية . وجاءت نقطة التحول عام ١٩٤١ عندما بدأ الاتحاد السوفيتى هجومه المضاد على القوات الألمانية فى الوقت الذى قررت الولايات المتحدة الأمريكية دخول الحرب إلى جانب الحلفاء . وانتهت سياسة هتلر بمجزرة بشرية للملايين من أبناء شعوب العالم ، وعندمـا اقتـرب الجـيش السوفيتـى مـن بـرلين أقدم هتلر على الانتحار - هـو وعشيقته إيفا براون - داخل خندق القيادة الألمانية ، فى نهاية نيسان (أبريل ١٩٤٥).

ماذا بعد دولة إسرائيل
والوطن القومي لليهود ؟

كان للمعاملة السيئة التى تلقاها يهود أوروبا لمدة اثنى عشر عاماً ، على أيدى الحركة النازية (١٩٣٣ - ١٩٤٥) أثر كبير فى نفوس معظم يهود العالم فهم أصبحوا فى حال من الرعب الدائم من احتمال أن تمتد حركة « المعاداة لليهودية » يوماً ما ، إلى بلدانهم . واستغلت الحركة الصهيونية هذا الشعور بعدم الاستقرار لإقناع عدد كبير منهم بالهجرة الى فلسطين استعداداً لإقامة الوطن القومى هناك ، تنفيذاً لوعد الحكومة البريطانية .

وكانت الفكرة وراء هذه الهجرة أن خلاص اليهود من اضطهاد العالم المسيحى لهم لن يتم إلا اذا استطاعوا تكوين دولة خاصة بهم يكونون هم غالبية المواطنين بها ، وبالتالى هم الحاكمون والمحكومون وحصلت الحركة الصهيونية على أكبر نصر لها عندما أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ قرارها بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، حتى تتاح لهم

فرصة إقامة الوطن القومى هناك ، على أثر انتهاء الحماية البريطانية فى العام التالى.

وكانت غالبية المهاجرين الأوائل إلى فلسطين من المانيا وروسيا ودول أوروبا الشرقية ، من اليهود الإشكناز .

وساعدت عوامل عدة فى نجاح الحركة الصهيونية فى الحصول — ليس فقط على تأييد غالبية الجماعات اليهودية المنتشرة فى العالم — بل وعلى تأييد غالبية الرأى العام العالمى لقضيتها .

وأهم هذه العوامل أسلوب الدعاية الإعلانية ، فقد ظهر سلاح الإعلام واستخدام العامل النفسى للشعوب ، كأسلوب مهم من أساليب الصراع خلال الحرب العالمية الثانية سواء من جانب الحزب النازى أو من جانب الحلفاء . ولما كان ادولف هتلر زعيم النازية يرى أن عدوه الرئيسى هو اليهودية والشيوعية ، فقد ركز الإعلام النازى دعايته ضد هذه القوى ، بل إن الفكر النازى العنصرى كان يرى أن الخطر الشيوعى — سواء متمثلا فى الاتحاد السوفيتى أو فى الحركات الشيوعية الثورية فى المانيا — ما هو إلا مظهر من مظاهر المؤامرة اليهودية التى تهدف إلى السيطرة على مراكز السلطة فى العالم . ورداً على هذا الاتجاه فإن الشيوعية العالمية والعالم الغربى ركزا على العداء لليهودية باعتباره يمثل اتجاها عنصريا

معادياً للديمقراطية الغربية ، واستخدمت التنظيمات الصهيونية هذه الدعاية ليس فقط ضد النازية الألمانية - وإنما كذلك فى مواجهة الرأى العام المسيحى كله ، متهمة إياه بالتقصير فى حماية اليهود ، وبالمسئولية الجماعية عن الاضطهاد الذى يتعرض له اليهود . وأصبح « الهولوكوست » رمزاً لهذا الاضطهاد ، الذى جعلته الحركة الصهيونية بمثابة « عقدة الذنب » فى ضمير العالم المسيحى . وبدلاً من اتهام الكنيسة لليهود فى العصور الوسطى بالمسئولية عن دم المسيح ، أصبح « الهولوكوست » يمثل اتهام الحركة الصهيونية للعالم الغربى كله بالمسئولية عن مقتل ملايين من اليهود . ولا شك فى أن هذا الأسلوب كان له أكبر الأثر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى حصول دولة إسرائيل على عطف وتأييد العالم المسيحى غير المشروط فى معظم الأحيان .

أما العامل الثانى فهو قرار الدول العربية بدخول جيوشها إلى فلسطين فى محاولة لمنع قيام الدولة اليهودية ، مما ساعد الحركة الصهيونية على إظهار الدولة الوليدة بمظهر الضعيف المعتدى عليه فى مواجهة « هولوكوست إسلامى جديد »! وهكذا تحالفت القوى العالمية فى تقديم أنواع المساعدات لحماية الدولة الإسرائيلية الجديدة ، بل ولمعاونتها فى تجاوز الحدود المرسومة لها فى قرار التقسيم ، والاستيلاءعلى مجمل الأرض الفلسطينية . ولا شك فى أن فشل السياسة العربية فى إقامة كيان

سياسى عربى فى الجزء المخصص للشعب الفلسطينى فى قرار التقسيم ساعد على إظهار هذه الأرض وكأنها أصبحت مباحة لمن يضع يده عليها . وكانت النتيجة أن قرار التقسيم - على رغم أنه هو الذى أعطى شرعية الوجود للوطن اليهودى - لم يعد يعتبر أساساً للتفاوض عند وضع شروط السلام النهائى بين العرب واليهود . وليست الحركة الصهيونية بحركة دينية ، وإنما تمثل إطاراً سياسياً لتجمع الطوائف اليهودية من أجل هدف واحد ، هو إقامة الوطن القومى لليهود . ولقد ثار خلاف كبير فى المؤتمر الصهيونى حول الأهداف الرئيسية للمنظمة ، وكانت غالبية قيادتها من الملحدين والشيوعيين ، وتم الاتفاق على نقطة جوهرية واحدة تجمعهم هى اعتبار اليهود هم الشعب المختار - ولا يهم من الذى اختاره - وأن اليهودية هى ارتباط سلالى وثقافى وجدانى . ويميز اليهود عن غيرهم من الأقوام .

وكما أراد مؤسسو الحركة إيقاف ذوبان اليهود فى مجتمعاتهم أولاً عند انتشار مبادئ الثورة الفرنسية بالمساواة بين المواطنين بصرف النظر عن اعتقاداتهم ، ثم بعد انتشار مبادئ الديمقراطية الليبرالية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فاليهود الآن شعب منفصل وهم جميعاً - على الأقل من الناحية النظرية - ينتمون إلى دولة إسرائيل اليهودية مهما كانت أوطانهم . ولم تكن مصادفة أن يقع اختيار قادة المنظمة الصهيونية على اسم

« إسرائيل » لدولتهم الجديدة التى أقاموها على أرض فلسطين ، ذلك أن الوعد الذى جاء بالتوراة جاء باسم إسرائيل ، كما وأن قوم إسرائيل هم الذين دعاهم موسى إلى عبادة الرب الواحد . وارتد أبناء إسرائيل عن العبادة الموسوية بعد موت رسولهم عند نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وظل أحفاد أسباط إسرائيل يعبدون الآلهة الكنعانية والفينيقية ثمانية قرون فى أرض كنعان ، بعد موت موسى ، إلى أن قام نبوخذ نصر – الملك البابلى بسبى بقاياهم إلى بابل خلال القرن السادس السابق على الميلاد ، وخلال السبى البابلى أعاد الكهنة كتابة كتب توراة موسى الخمسة ، وأقاموا الديانة اليهودية . وفى القرن التالى جاء الكاهن عزراً إلى فلسطين حاملاً معه نسخة من التوراة قرأها أمام الملأ . وكانت يهودية الكهنة تقوم على قراءة التوراة فى معبد القدس وتقديم الأضحية .

وعندما دمر الرومان معبد القدس عام ٧٠ ميلادية وذبحوا جميع الكهنة ، بدأ الأحبار (الفقهاء) اليهود فى التبشير بالتوراة الشفهية التى قالوا أنها وصلتهم عن طريق موسى ، والتى جمعت فيما بعد فى كتابات التلمود . وأقام الأحبار الديانة الربانية التى تقوم على دراسة التلمود والقيام ببعض طقوس الصلاة .

واستطاع الأحبار الإبقاء على عزلة اليهود فى غربتهم عن المجتمعات التى هاجروا إليها .

وكان أول عهد لليهود بالفلسفة والمدارس الفقهية فى أيام الدولة الإسلامية ، سواء في بغداد ودمشق أو فى بلاد الأندلس ، وتأثر الفكر اليهودى بالمذاهب الإسلامية إلى حد كبير . إلا أن حدثاً خطيراً كان له أهميــة كبرى في تاريخ اليهود تم بعيداً عن مراكز الأحبار وفي غيبة عنهم ، في بلاد القوقاز بجنوب روسيا . فهناك قام ملك الخزر خلال القرن الثامن باعتناق الديانة اليهودية وتبعه فى ذلك غالبية شعب القوقاز ، ولما سقطت مملكة الخزر في القرن العاشر انتشر اليهود الخزر إلى رومانيا وبولندا وكييف في روسيا . وأصبح اليهود الخزر – الذين عرفوا بعد ذلك بالإشكناز – هم الغالبية العظمى من يهود العالم ، بينما كان السفارديم الذين هاجروا من إسبانيا والبرتغال عند سقوط دولة الأندلس فى نهاية القرن الخامس عشر والبابليين الذين عاشوا فى بلاد العراق يمثلون أقلية فى الكيان اليهودى الجديد .

وفى الواقع فإن اليهود فوجئوا بوجود ملايين من الأقوام القوقازية التى تدعى الانتماء إلى ديانتهم . وظل الفريقان متباعدان مدة طويلة من الزمان . ولا زال حتى الآن من لا يعتبر الإشكناز ـ على أساس سلالى ـ من اليهود . وكانت نقطة حاسمة في حياة اليهود ظهور شابتاى زيفى خلال القرن السابع عشر الذى ادعى أنه هو المسيح المنتظر لليهود ، وتبعه غالبية يهود العالم بما فى ذلك أحبارهم . ثم فاجأ زيفى اتباعه بإعلانه

الدخول فى الديانة الإسلامية ودعوته أتباعه إلى سلوك الطريق نفسها . وكانت صدمة إسلام مسيح اليهود هى بداية الطريق إلى انهيار الاعتقادات اليهودية الربانية التقليدية ، وظهرت مدارس ومذاهب جديدة بعد ذلك بينهم . ثم جاء عصر التحرر الأوروبى ليقدم فرصة لليهود بالخروج من عزلتهم والاندماج فى المجتمعات الليبرالية الحديثة ، شريطة التخلى عن فكرة الشعب المختار . ولا شك فى أن فكرة الشعب المختار أو « السوبرمان » هى فكرة عنصرية فى جوهرها ، فمن الممكن الاعتقاد بتفاضل بعض الناس نتيجة لذكائهم أو لعلمهم أو لموهبتهم أو لإيمانهم أو تضحياتهم ، ولكن أن يكون هناك قوم يفضلون الأخرين بفضل انتمائهم السلالى فهذا شئ يصعب قبوله فى العصر الحديث . ومع هذا فإن الفكرة الصهيونية اختارت هذا المبدأ لتجعله محوراً لتجميع اليهود ومنعهم من الذوبان فى مجتمعاتهم .

فاليهودية – بحسب النظرية الصهيونية – ليست ديانة ، وإنما هى نوع من البشر متفوق بسبب انتمائه على باقى الأقوام ، كان اختيار اسم « إسرائيل » بدلاً من « يهودا » للدولة اليهودية فى فلسطين يهدف أساساً إلى تثبيت الاعتقاد بأن اليهود ينتمون إلى بنى إسرائيل الذين وردت قصتهم فى الكتب المقدسة ، **مع أن غالبية يهود إسرائيل من سلالة خزر القوقاز ، لا تنتمى سلالياً إلى يعقوب ولا الجنس السامى ولا أهل المنطقة !**

فهـــرست

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة
- الفلسفة اليهودية الحديثة ترفض فكرة الشعب المختار	١١٣
- ظهور جمعيات «حبات صهيون» وبداية حركة اليهودية السياسية	١٢١
- إنتقال قيادة الحركة الصهيونية إلى بريطانيا العظمى	١٢٩
- كارل ماركس بين المسألة اليهودية والخلاص الشيوعى	١٣٧
- أرض الميعاد : هل هى فلسطين أم الولايات المتحدة الأمريكية ؟	١٤٧
- المشكلة اليهودية بالنسبة إلى هتلر هى الجنس اليهودى نفسه !	١٥٥
- ماذا بعد دولة إسرائيل والوطن القومى لليهود ؟	١٦٥